الدكتور يوسف القرضاوي

الوقت في حياة المسلم

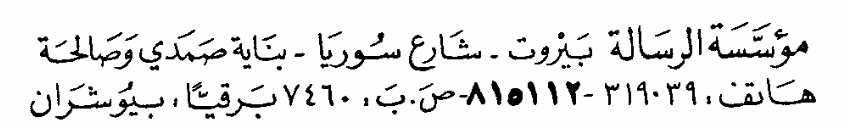
مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤١٢هـ - ١٩٩١م





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمْد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاةُ والسلام على رسوله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بسنته إلى يوم الدين.

وبعد، فهذه صحائف كنت كتبتها عن نعمة «الوقت» وقيمته في حياة الإنسان المسلم وواجب المسلم نحوه، دفعني إلى كتابتها ما عرفتُه من اهتمام الإسلام البالغ في كتابه وسنته بالوقت..

وما لمسته لدى المسلمين في قرونهم الأولى - وهي خير القرون - من حرص شديد على أوقاتهم فاق حرصَ مَنْ بعدَهم على دراهمهم ودنانيرهم، مما كان حصاده علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وجهاداً مبروراً، وفتحاً مبيناً، وحضارة راسخةَ الجذور باسقة الفروع.

ثم ما عايشته وأعايشه اليوم في دنيا المسلمين مِن إضاعة للأوقات، وتبذير للأعمار، جاوز حد السَّفه إلى العته، حتى غَدَوْا في ذيل القافلة وقد كانوا منها في مأخذ الزمام. فلا عملوا لعمارة دنياهم، شأن أهل الدنيا، ولا لِعمارة آخرتهم شأن أهل الدين، بل خرَّبوا الدارين، وحُرِمُوا الحسنيين!! ولو فقهوا، لعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبداً، وعملوا للآخرة كأنهم يموتون غداً. وجعلوا شعارهم الدعاء القرآني الجامع: (رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) [البقرة: آية ٢٠١].

فعسى أن يعلِّمهم الزمانُ، وينبههم اختلافُ الليل والنهار، إن كانوا من أولي الألباب (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ

فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ

مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ

رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا

وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ)

[سورة آل عمران].

عِنايَةُ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ بالوقتِ

عُني القرآن والسنة بالوقت من نواحٍ شتى، وبصور عديدة.

وفي مقدمة هذه العناية بيان أهمِيته، وعظم نعمة الله فيه. يقول القرآن في معرض الامتنان، وبيان عظيم فضل الله تعالى على الإنسان: (وَسَخَّر لَكُم الشمسَ والقَمَرَ دائِبَيْن، وسخَّر لكم الليلَ والنَّهار. وآتاكُم من كلِّ ما سألتموه، وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها)[1].

ويقول تعالى: (وَهُو الذي جَعَل اللَّيل والنَّهار خِلْفَةً لِمَنْ أرادَ أن يَذَّكَّرَ أوْ أرادَ شُكُورا)[2]، أي: جعل الليل يخلُف النهار، والنهار يخلُف الليل، فمن فاته عمل في أحدهما، حاول أن يتداركه في الآخر.

ولبيان أهمية الوقت، أقسم الله تعالى في مطالع سُوَرٍ عديدة من القرآن المكي بأجزاء معينة منه، مثل الليل والنهار، والفجر، والضحى والعصر، كما في قوله تعالى (والليلِ إذا يَغْشى، والنَّهار إذا تَجلّى)، (والفَجْرِ، وليالٍ عَشْرٍ)، (والضُّحى، واللّيلِ إذا سجى)، (والعَصْرِ، إنّ الإنْسَانَ لفي خُسْر).

ومن المعروف لدى المفسرين، وفي حس المسلمين: أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه، فذلك ليلفت أنظارهم إليه، وينبههم على جليل منفعته وآثاره.

وجاءت السنة النبوية تؤكد قيمة الوقت، وتقرر مسؤولية الإنسان عنه أمام الله يوم القيامة، حتى إن الأسئلة الأربعة الأساسية التي توجه إلى المكلف يوم الحساب، يخص الوقت منها سؤالان رئيسان. فعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ

(١) سورة إبراهيم: ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة الفرقان: ٦٢.

قال: «لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له.

وهكذا يُسأل الإنسان عن عمره عامة، وعن شبابه خاصة، والشباب جزء من العمر، ولكن له قيمة متميزة باعتباره سن الحيوية الدافقة، والعزيمة الماضية، ومرحلة القوة بين ضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة، كما قال تعالى: (الله الذي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثم جعَل مِن بعدِ ضَعْفٍ قوة، ثم جعَل مِن بعدِ قوةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً)[1].

شعائر الإسلام وآدابه تؤكد قيمة الوقت:

وجاءت الفرائض الإسلامية، والآداب الإسلامية، تثبت هذا المعنى الكبير: قيمة الوقت والاهتمام بكل مرحلة منه، وكل جزء فيه، وتوقظ في الإنسان الوعي، والانتباه إلى أهمية الوقت مع حركة الكون، ودورة الفلك، وسير الشمس والكواكب، واختلاف الليل والنهار.

فحينما ينصدع الليل، ويسفر نقابه عن وجه الفجر، يقوم داعي الله يملأ الآفاق، ويسكب في مسمع الزمان، منبهاً للغافلين، موقظاً للنائمين: أن يقوموا ليتلقوا الصباح الطهور من يد الله «حي على الصلاة، حي على الفلاح» «الصلاة خير من النوم»، فتجيبه الألسنة الذاكرة، والقلوب الشاكرة، والأيدي المتوضئة الطاهرة: «صدقت وبررت»، وتحل كل «عقد الشيطان»[2] حيث تقوم بسرعة إلى الصلاة.

وحين يقوم قائم الظهيرة، وتزول الشمس عن كبد السماء، ويغرق الناس في لجج المشاغل الدنيوية، والمتاعب اليومية، يعود المنادي ينادي مرة ثانية، مكبراً مهللاً، شاهداً لله بالوحدانية، ولنبيه محمد بالرسالة، داعياً إلى الصلاة

---

(١) سورة الروم: ٥٤.

(٢) إشارة إلى الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام، ثلاث عقد» وسيأتي عند الحديث عن نظام الحياة اليومي للمسلم.

والفلاح. وهناك يُنْتَزع الناس من براثن أعمالهم، وروتين حياتهم، ليقفوا بين يدي خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمرهم، دقائق معدودات، يخففون فيها من غلواء التصارع على المادة، والاستغراق في طلب الدنيا، وذلك في صلاة وسط النهار: صلاة الظهر.

وحين يصير ظل كل شيء مثله، وتبدأ الشمس تميل للمغيب، ينادي المنادي مرة ثالثة، داعياً إلى صلاة العصر.

وحين يختفي قرص الشمس، ويغيب وجهها من الأفُق، ينادي داعي الله مرة رابعة مؤذناً لصلاة آخر النهار وأول الليل: صلاة المغرب.

وحين يغيب الشفق، يرتفع الصوت الرباني بالأذان الأخير للصلاة الخاتمة ليوم المسلم: صلاة العشاء.

وبهذا يفتتح يومه بالصلاة، ويختَتمه بالصلاة، وهو بين الصلاتين: الفجر والعشاء ـ على موعد دائم متجدد مع الله، كلما دار الفلك، واختلف الليل والنهار.

وفي كل أُسبوع يجيء يوم الجمعة، لينادي فيه المنادي نداءً جديداً، يدعو إلى صلاة أُسبوعية جماعية ذات وضع خاص، وشروط خاصة هي صلاة الجمعة.

وفوق هذه الصلوات المفروضة، هناك صلاة الليل بالأسحار، يقوم بها عباد الرحمن، الذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، وصلاة الضحى، وصلوات النوافل في أوقات شتى من اليوم والليلة.

وفي مطلع كل شهر يبزُغ الهلال، فيستقبله المسلم مهللاً مكبراً داعياً ربه، مناجياً هذا الوليد الجديد: الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر.. الحمد لله الذي خلَقك، وقدرَك منازل، وجعَلك آية للعالمين. اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى. هلال خير ورشد.. ربي وربك الله.

وفي شهر رمضان من كل عام، حيث تُفتَحُ أبوابُ الجنة، وتُغلَق أبواب جهنم، وتُصَفَّد الشياطين، ينادي مناد آخر من السماء لا من الأرض: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر.

هنالك يتوب العاصي، ويُقبِلُ المُعْرِضُ، وينتَبه الغافل، ويعود كثير من الشاردين إلى ساحة الله، يلتَمِسون رضاه، ومغفِرته بحُسن الصيام، وحُسن القيام، كما وعدهم رسوله الكريم: «مَنْ صام رمضان إيماناً، واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه، ومَنْ قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه».

وبعد هذه السياحة الروحية في شهر رمضان، تتبعها سياحة أخرى: مادية وروحية معاً، هي سياحة الحج الذي تبدأ أشهره بمجرد انتهاء رمضان (الحَجُّ أشهُرٌ معلومات، فَمن فَرَضَ فيهِنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوق ولا جدَال في الحجِّ. وما تفعَلوا مِنْ خير يعلَمْهُ الله، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التَّقوى، واتَّقون يا أُولي الألباب)[1].

لقد كان بعض السلف يسمون الصلوات الخمس: «ميزان اليوم»، ويسمون الجمعة «ميزان الأسبوع» ويسمون رمضان «ميزان العام»، ويسمون الحج «ميزان العمر» حرصاً منهم على أن يسلم لأحدهم يومه أولاً، فإذا مضى اليوم كان همه في سلامة الأسبوع، ثم في سلامة العام، ثم في سلامة العمر في النهاية.. وذلك هو مسك الختام.

وبجانب هذا وذاك فريضة الزكاة، التي تَجبُ كل حول في معظم الأحوال، وعند كل حصاد، وجني في الزروع والثمار: (وآتوا حقَّه يوم حصَاده)[2]، وبهذا يظل المسلم منتبهاً لمسيرة الزمن، مراقباً لحركته حتى لا يؤخر الزكاة عن موعد وجوبها، إذا حال الحول أو جاء أوان الحصاد.

خصائص الوقت:

وللوقت خصائص يتميز بها، يجب علينا أن ندركها حق إدراكها، وأن نتعامل معه على ضوئها منها:

(١) سورة البقرة: ١٩٧.
(٢) سورة الانعام: ١٤١.

١ ـ سرعة انقضائه:

فهو يمر مر السحاب، ويجري جري الريح، سواء كان زمن مسرة وفرح، أم كان زمن اكتئاب وترح، وإن كانت أيام السرور تمر أسرع، وأيام الهموم تسير ببطء وتثاقل، لا في الحقيقة ولكن في شعور صاحبها. يقول أحد الشعراء:

مرت سنينٌ بالوصال وبالهنَا فكأنَّها من قُصْرها أيامُ
ثم انثنت أيامُ هجْرٍ بعدها فكأنَّها من طولِها أعوام
ثم انقَضت تِلك السنونُ وأهلُها فكأنَّها وكأنَّهُم أحلام

ومهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير، ما دام الموت هو نهاية كل حي. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا كان آخرُ العمر موتاً فسواء قصيرُه والطويل!

وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان، حتى لكأنها لحظات مرت كالبرق الخاطف.

يحكون عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام: أنه جاءه ملَك الموت ليتوفاه بعد أكثر من ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده، فسأله: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر!!

وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح، فإنها تعبر عن حقيقة مقررة، هي تضاؤل الأعمار عند الموت، ومثل ذلك عند قيام الساعة، يتراءى للإنسان قِصَر ما فات، وضآلته، حتى يقول الله تعالى: (كأنَّهُم يومَ يَرونَهَا لم يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها)[١] وفي آية أخرى(وَيومَ يَحْشُرُهُم كأن لم يَلْبَثُوا إلا سَاعةً من النَّهار يَتَعَارفُون بَيْنَهم)[٢].

---

(١) سورة النازعات: ٤٦.
(٢) سورة يونس: ٤٥.

٢ـ أن ما مضى منه لا يعود ولا يعوض:

وهذه خصيصة أخرى من خصائص الوقت، فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها، وبالتالي لا يمكن تعويضها. وهذا ما عبر عنه الحسن البصري بقوله البليغ: «ما من يوم ينشق فجره، إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة».

وليس هذا حديثاً مرفوعاً، كما حسِب بعض الناس، بل هو من كلام الحسن البصري الذي قال فيه الإمام علي زين العابدين: «هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء».

ولهذا رأينا الشعراء والأدباء بعد بلوغ المشيب، يتمنون عودة أيام الشباب مرة أخرى، ولكنه محض تمن، لا يفيد في كثير ولا قليل. يقول قائلهم:

ألا ليتَ الشبابَ يعـود يـومـاً فأُخبره بما فعَـل المشيـبُ!

ويصور شاعر آخر كيف يمضي العمر، وتذهب أيامه ولياليه بلا رجعة، ولا أمل في رجعة. فيقول:

وما المرءُ إلا راكبٌ ظَهْرَ عُمْرِه على سفر يُفْنِيه باليوم والشهـرِ
يَبِيتُ ويُضحي كلَّ يومٍ وليلـةٍ بعيداً عن الدنيا قريبـاً إلى القبر

٣ ـ أنه أنفس ما يملك الإنسان:

ولما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان ما مضى منه لا يرجع، ولا يعوض بشيء، كان الوقت أنفس وأثمن ما يملِك الإنسان، وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فرداً أو مجتمعاً.

إن الوقت ليس من ذهب فقط كما يقول المثل الشائع، بل هو أغلى في حقيقة الأمر من الذهب واللؤلؤ والماس، ومن كل جوهر نفيس، وحجر

كريم. إنه ـ كما قال الشهيد حسن البنا ـ: هو الحياة! فما حياة الإنسان إلا الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة.

وفي هذا قال الحسن البصري أيضاً: يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك!

ومن جهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته، وقيمة العمل فيه. ولكن بعد فوات الأوان. وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته، حيث لا ينفع الندم.

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حين يستدبر الإنسان الدنيا، ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو مُنِحَ مهلة من الزمن، وأُخِّر إلى أجل قريب، ليصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات. وفي هذا يقول القرآن:

(يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أموالُكُم، ولا أولادُكُم عن ذِكْر الله، ومن يفعَل ذلك فأُولئك هُمُ الخاسِرُون. وأنفِقوا مما رزقنَاكُم من قَبْل أن يأتِي أحَدَكُم الموتُ فيقول: رَبِّ لولا أخَّرْتَني إلى أجلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّق وأكُن من الصالحين)[1].

وكان الرد على هذه الأمنية الفارغة قاطعاً ومانعاً: (ولَن يُؤخِّر اللهُ نَفْساً إذا جاء أجلُها، واللهُ خَبيرٌ بما تعملون)[2].

والموقف الثاني: في الآخرة، حيث تُوفَّى كل نفس ما عملت، وتُجْزى بما كسبت، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى حياة التكليف، ليبدؤوا من جديد عملاً صالحاً، وهيهات هيهات لما يطلبون، فقد انتهى زمن العمل، وجاء زمن الجزاء. يقول الله تعالى: (والذين كَفَروا لَهُم نارُ جهنَّم، لا يُقْضَى عليهِم فيَمُوتوا، ولا يُخَفَّفُ عنهُم من عذابها كذلِكَ نَجْزي كُلَّ كَفُور. وهُم يصطرخون فيها: ربَّنا أخرجنَا نَعْمَلْ صَالحاً غيرَ الذي كُنا نعملُ، أوَلَم نُعَمِّركُم ما يَتَذَكَّرُ فيه من تَذَكَّر وجاءكُمُ النَّذير، فذوقوا فما

(١) سورة المنافقون: ٩، ١٠.

(٢) سورة المنافقون: ١١.

للظَّالمين من نصيرٍ)[1] .

وانقطعت حجتهم بهذا السؤال التقريعي : (أوَلَم نُعَمِّركُمْ، ما يتذكَّرُ فيه من تَذَكر وجاءَكُم النذيرُ)

فلم يجدوا له جواباً .

فقد قطع الله الأعذار، حين أعطى كل مكلف من العمر ما يتسع لعمل ما كُلِّف به ، ويذكره إذا غَفِل عنه ، وبخاصة من عاش حتى بلغ الستين من عمره . ففي هذا القدر من السنين ما يكفي لأن ينتبه الغافل ، ويؤوب الشارد ، ويتوب العاصي ، وفي الحديث الصحيح : « أعذر الله إلى امرىء أمهله حتى بلغ ستين عاماً »[2] .

واجب المسلم نحو الوقت :

وإذا كان للوقت كل هذه الأهمية ، حتى ليعد هو الحياة حقاً ، فإن على الإنسان المسلم واجباً بل واجبات نحو وقته ، ينبغي أن يعيها ، ويضعها نُصْبَ عينيه ، وأن ينقلها من دائرة المعرفة والإدراك إلى دائرة الإيمان والإرادة ، فدائرة العمل والتنفيذ .

الحرص على الاستفادة من الوقت .

وأول واجب على الإنسان المسلم نحو وقته ، أن يحافظ عليه ، كما يحافظ على ماله ، بل أكثر منه ، وأن يحرص على الاستفادة من وقته كله ، فيما ينفعه في دينه ودنياه ، وما يعود على أمته بالخير والسعادة ، والنماء الروحي والمادي .

وقد كان السلف ـ رضي الله عنهم ـ أحرص ما يكونون على أوقاتهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها .

يقول الحسن البصري : أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم !

---

(١) سورة فاطر : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) رواه البخاري .

ومن هنا كان حرصهم البالغ على عمارة أوقاتهم بالعمل الدائب والحذر أن يضيع شيء منه في غير جدوى. يقول عمر بن عبد العزيز: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما!

وكانوا يقولون: من علامة المقت إضاعة الوقت. ويقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وكانوا يحاولون دائما الترقي من حال إلى حال أحسن منها، بحيث يكون يوم أحدهم أفضل من أمسه. وغده أفضل من يومه، ويقول في هذا قائلهم: من كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون!

وكانوا يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم أو بعض يوم، أو برهة من الزمان وإن قصرت، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع، أو عمل صالح، أو مجاهدة للنفس، أو إسداء نفع إلى الغير، حتى لا تتسرب الأعمار سدى، وتضيع هباء، وتذهب جفاء، وهم لا يشعرون.

وكانوا يعتبرون من كفران النعمة، ومن العقوق للزمن: أن يمضي يوم لا يستفيدون منه لأنفسهم، ولا للحياة من حولهم، نمواً في المعرفة، ونموا في الإيمان، ونمواً في عمل الصالحات.

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما نَدِمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي!

وقال آخر: كل يوم يمر بي لا أزداد فيه علماً يقربني من الله عز وجل، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم.

وقد رفع هذا بعضهم إلى النبي ـ ﷺ ـ وقد رده ابن القيم في «مفتاح السعادة» وقال: حسبه أن يصل إلى بعض الصحابة أو التابعين.

وفي هذا قال الشاعر:

إذا مر بي يومٌ ولم أقتبس هُدى ... ولم أستفد علماً فما ذاك من عُمري

وقال حكيم: من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه، وظلم نفسه!

قتلة الوقت:

وإذا كان هذا هو حرص سلفنا على الوقت، وتقدير قيمته وخطره، فإن مما يدمي القلب، ويمزق الكبد أسى وأسفاً: ما نراه اليوم عند المسلمين من إضاعة للأوقات فاقت حد التبذير إلى التبديد.

والحق أن السفه في إنفاق الأوقات أشد خطراً من السفه في إنفاق الأموال، وإن هؤلاء المبذرين المبددين لأوقاتهم، لأحق بالحجر عليهم من المبذرين لأموالهم، لأن المال إذا ضاع قد يعوض، والوقت إذا ضاع لا عِوَضَ له.

ومن العبارات التي أصبحت مألوفة لكثرة ما تدور على الألسنة، وما تقال في المجالس والأندية عبارة: «قتل الوقت» فنرى هؤلاء المبذرين أو المبددين يجلسون الساعات الطوال من ليل أو نهار حول مائدة النرد، أو رقعة الشطرنج، أو لعبة الورق، أو غير ذلك ـ مما يحِل أو يَحْرُمُ ـ لا يبالون، لاهين عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن واجبات الدين والدنيا، فإذا سألتهم عن عملهم هذا وما وراءه من ضياع، قالوا لك بصريح العبارة: إنما نريد أن نقتل الوقت! وما يدري هؤلاء المساكين أن من قتل وقته فقد قتل في الحقيقة نفسه! فهي جريمة انتحار بطيء تُرتَكب على مرأى ومسمع من الناس، ولا يعاقب أحد عليها! وكيف يُعاقِبُ عليها من لا يشعُر بها، ولا يدري مدى خطرها؟!

اغتنام الفراغ:

ومن النعم التي يغفل كثير من الناس عنها، ويجهلون قدرها، ولا يقومون بحق شكرها: نعمة الفراغ.

روى البخاري عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ ـ: «نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ».

يقصد بالفراغ الخلو من المشاغل والمعوقات الدنيوية، المانعة للمرء من حيث الاشتغال بالأمور الأخروية.

ولا ينافي هذا ما جاءت به النصوص الكثيرة من حث على الكسب وطلب المعاش، ما دام ذلك لا يغرقه في لجة الحياة ومطالبها، ولا يعطله عن القيام بحق الله عز وجل.

والأصل في الغبن أن يكون في البيع والشراء والتجارة، وهنا ـ كما يقول العلامة المناوي ـ شبه المكلف بالتاجر، والصحة والفراغ برأس المال، لكونهما من أسباب الأرباح، ومقدمات النجاح، فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح، ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله.

وفي الحديث الآخر: «اغتنم خمساً قبل خمس.. ـ وعد منها ـ: وفراغك قبل شُغلك».

والفراغ لا يبقى فراغاً أبداً، فلا بد له أن يملأ بخير أو شر، ومن لم يشغل نفسه بالحق، شغلته نفسه بالباطل، فطوبى لمن ملأه بالخير والصلاح، وويل لمن ملأه بالشر والفساد.

يقول بعض الصالحين: فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر العبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجر في قياد الشهوات، شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه.

ويقول صاحب الحكم: الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه، يعني المولى جل جلاله.

وكان السلف الصالحون يكرهون من الرجل أن يكون فارغاً، لا هو في أمر دينه، ولا هو في أمر دنياه. وهنا تنقلب نعمة الفراغ نقمة على صاحبها، رجلاً كان أو امرأة، ولهذا قيل: الفراغ للرجال غفلة وللنساء غلمة، أي: محرك للغريزة، والتفكير في أمر الشهوة. وهل كان تعلق امرأة العزيز بيوسف وشغفها به، وتدبيرها المكايد لايقاعه في شباكها، إلا نتيجة الفراغ الذي تعيش فيه،

ويشتد خطر الفراغ إذا اجتمع مع الفراغ الشباب الذي يتميز بقوة الغريزة، والجدة: أي: القدرة المالية التي تمكن الإنسان من تحصيل ما يشتهي . . وفي هذا يقول أبو العتاهية في أرجوزته:

إن الشبابَ والفراغَ والجده مَفسدةٌ للمرء أيَّ مفسده!

ويقول الآخر:

لقد هاج الفراغُ عليه شُغلاً وأسباب البلاءِ من الفراغِ

يعني بالشغل الذي هاجه الفراغ عليه: شغل القلب وتعلقه بالشهوات وأحلام اليقظة، مما لا يثمر إلا سوء العواقب في الآخرة والأولى.

المسارعة في الخيرات:

ويجدر بالمؤمن الذي يقدر قيمة الوقت وأهميته أن يغمره بفعل الخير ما استطاع إليه سبيلاً، ولكن لا يكفي أن ينهض إلى الخير في تثاقل وتكاسل، أو يؤدي بعضه ويؤجل بعضه، أو يؤخره كله من يوم إلى آخر، عجزاً أو كسلاً. وقد قال الشاعر:

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل إلى غد. إن يوم العاجزين غد!!

ومن الأدعية والأذكار التي علمها النبي ﷺ لأمته، ليقولها المسلم في إصباحه وإمسائه «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل . .»

ومن ثم أمر القرآن الكريم باستباق الخيرات والمسارعة إليها، قبل أن تشغل عنها الشواغل، أو تعوق العوائق. يقول تعالى: (ولكُلٍّ وجهَةٌ هو مولِّيها فاستبقوا الخيرات، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً)[1].

ويقول معقباً على أهل الكتاب وما أنزل عليهم: (ولو شَاء الله لجَعَلكم أمة واحدة، ولكن ليبلُوَكُم فيما آتاكُم فاستَبِقُوا الخَيْرات إلى الله مَرجِعُكُم جميعاً)[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٤٨.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

ويقول جل شأنه مرغبا في الجنة ونعيمها (وسارعوا إلى مغفِرةٍ من ربِّكم وجنة عرضُها السّماوات والأرضُ أعدت للمتقين)[١] .

وفي آية أخرى (سابقوا إلى مَغفِرةٍ من ربِكم وجنّةٍ عرضُها كعَرْضِ السماءِ والأرضِ)[٢] .

فهو يأمر بالمسارعة والمسابقة إلى مغفرة الله وجنته، أي: إلى أسبابها، وهي الإيمان، والتقوى، والعمل الصالح. والتسابق والتنافس هنا مطلوب ومحمود: (وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسون)[٣] وقد أثنى الله على بعض أنبيائه المصطفين الأخيار بقوله: (إنَّهم كانوا يُسارِعون في الخَيْرات ويدعُونَنَا رَغَبَاً ورَهَبَاً وكانوا لنا خَاشِعِين)[٤] .

ومدح الصالحين من أهل الكتاب بأنهم (يُؤْمِنُون بالله واليومِ الآخِرِ ويأمُرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر ويُسارِعون في الخيرات وأُولئِكَ من الصالحين)[٥] .

وعلى حين ذم المنافقين بقوله: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالى)[٦] . وقوله: (ولا يأتون الصلاة إلا وهُم كسالى ولا يُنفِقون إلا وهـم كارهون)[٧] .

وكان النبي - ﷺ - يأمر بالمبادرة إلى العمل قبل حلول العوائق والفتن، ويقول: « هل تنتظرون إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسِداً، أو هرماً مفْنِداً[٨] ، أو موتا مُجْهِزاً، أو الدجال فشر غائب يُنتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر » رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حديث حسن.

وقال: « من خـاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذي أيضاً وحسنه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٣ .
(٢) سورة الحديد: ٢١ .
(٣) سورة المطففين: ٢٦.
(٤) سورة الأنبياء: ٩٠.
(٥) سورة آل عمران: ١١٤.
(٦) سورة النساء: ١٤٢ .
(٧) سورة التوبة: ٥٤ .
(٨) مفنداً: موقعا في الفند، وهو كلام المخرف.

الاعتبار بمرور الأيام:

وينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لنفسه، فإن الليل والنهار يُبلِيَان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويشيبان الصغار، ويفنيان الكبار. كما قال الشاعر قديما:

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيـــر كرُّ الغَداة ومـــرُّ العشي
إذا ليلة أهرمت يومَهَـــا أتى بعد ذلك يـــوم فتي

إن مُضي الزمن، واختلاف الليل والنهار لا يجوز أن يمر بالمؤمن وهو في ذهول عن الاعتبار به، والتفكير فيه، ففي كل يوم يمر، بل في كل ساعة تمضي، بل في كل لحظة تنقضي، تقع في الكون والحياة أحداث شتى، منهاما يُرى وما لا يُرى، ومنها ما يُعلم وما لا يُعلم، من أرض تحيا، وحبة تنبُت، ونبات يُزهِر وزهر يُثمر، وثمر يُقطف، وزرع يُصبح هشيماً تذروه الرياح، أو من جنين يتكون، وطفل يولد، ووليد يشب، وشاب يكتهل، وكهل يشيخ، وشيخ يموت! ومن أحوال تدور على الناس كلما دار الفلك من فوق أو دارت الأرض من تحت، بين يُسر وعُسر، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وسرور وحزن، وشدة ورخاء، وسرَّاء وضرَّاء، وفي كل ذلك آية لمن كان له لُبّ، وذكرى لمن كان له قلب، وعبرة لمن كان له بصر. أما من حُرِمَ تفكر أولي الألباب، وإحساس ذوي القلوب، ونَظَر أولي الأبصار، فلن يفيده اختلاف الليل والنهار، يقول الله تعالى: (إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرض واختلافِ الليلِ والنهار لآيات لأولي الألباب)[1]، ويقول جل شأنه: (يُقَلِّبُ الله الليلَ والنَّهارَ، إن في ذلك لَعِبرةً لأولي الأبصار)[2].

تنظيم الوقت:

وينبغي للإنسان المؤمن أن ينظم وقته بين الواجبات والأعمال المختلفة، دينية كانت أو دنيوية، حتى لا يطغى بعضها على بعض، ولا يطغى غير المهم

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.
(٢) سورة النور: ٤٤.

على المهم، ولا المهم على الأهم، ولا غير الموقوت على الموقوت، فما كان مطلوباً بصفة عاجلة يجب أن يُبَادَر به ويؤخر ما ليس له صفة العجلة، وما كان له وقت محدد يجب أن يعمل في وقتِه.

ومما رواه النبي - ﷺ - عن صحف إبراهيم: « ينبغي للعاقل - ما لم يكن مغلوباً على عقله - أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسِب فيها نفسَه، وساعة يتفكر في صُنْعِ الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب »[١]

وأحوج الناس إلى تقسيم الوقت وتنظيمه هم المشغولون من الناس من أصحاب المسؤوليات، لتزاحم الأعباء عليهم، حتى إنهم ليشعرون أن الواجبات أكثر من الأوقات.

ومن تنظيم الوقت أن يكون فيه جزء للراحة والترويح، فإن النفس تسأم بطول الجد، والقلوب تَمل كما تمل الأبدان، فلا بد من قدر من اللهو والترفيه المباح. كما قال علي - رضي الله عنه -: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي.[٢]

ولا يحسن بالمرء المسلم أن يرهق نفسه بالعمل إرهاقاً يضْعِف من قوته، ويحول دون استمرار مسيرته، ويحيف على حق نفسه، وحق أهله، وحق مجتمعه، ولو كان هذا الإرهاق في عبادة الله تعالى صياماً وقياماً وتنسُّكاً وزهْداً.

ولهذا قال النبي ﷺ لأصحابه لما رآهم تكاثروا للصلاة خلفه في الليل: « خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل »[٣]

وفي موقف آخر قال: « إن الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي ذر الطويل، واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح الإسناد كما في الترغيب.

(٢) انظر: فصل « اللهو والترفيه » من كتابنا « الحلال والحرام في الإسلام ».

(٣) رواه الشيخان من حديث عائشة.

فسدّدوا وقاربوا وأبشروا »[1] .

ونصح من بالغ في القراءة والقيام والصيام بالاقتصاد والاعتدال قائلاً : « إن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً »[2] .

وقال لآخرين غلوا في الطاعة والزهد : « إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[3] .

فهذه هي سنته ، وهذا هو منهجه عليه الصلاة والسلام : منهج التوسط والاعتدال بين الروحية والمادية ، والموازنة بين حظ النفس وحق الرب ، جل جلاله .

ومن ثم لا يرى الإسلام بأسا أن يكون للإنسان جزء من وقته لترويح نفسه بالحلال الطيب من متاع الحياة وزينتها ، ولهوها ولعبها .

ولهذا لما سمع الرسول - ﷺ - حنظلة أحد أصحابه ، وقد اتهم نفسه بالنفاق ، لتغير حاله في بيته ومع أهله وولده عن حاله عند رسول الله - ﷺ - قال له : « يا حنظلة ، لو بقيتم على الحال التي تكونون عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة في الطرقات ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » رواه مسلم فهذا هو شأن المسلم : ساعة وساعة ، أي : ساعة لربه ، وساعة لقلبه ، كما يقول المثل السائر .

روى الأصمعي أنه رأى في البادية امرأة بيدها مسبحة ، وقفت تكتحل وتتزين ، قال : فقلت لها : أين هذا من هذا ؟ يعني أنه يستبعد أن تكون من أهل الذكر والتسبيح ، وفي الوقت نفسه من ذوات اللهو والتجمل . فأنشأت المرأة تقول :

ولله مني جـانِــبٌ لا أضيعـــه ... وللهو مني والبطـالـة جـانـــبُ !

(١) رواه البخاري والنسائي من حديث أبي هريرة ، ومعناه كما قال المناوي في « التيسير » : لا يتعمق أحد في العبادة ، ويترك الرفق كالرهبان إلا عجز فغلب « فسددوا » أي : الزموا السداد ، وهو الصواب بلا إفراط ولا تفريط . و« قاربوا » أي : إن لم تستطيعوا الأخذ بالاكمل فاعملوا بما يقرب منه و« ابشروا » بالثواب على العمل الدائم وإن قل » .

(٢) و(٣) رواهما البخاري .

قال الأصمعي: ففهمت أنها امرأة صالحة ذات زوج تتجمل له.

لكل وقت عمله:

وينبغي للمؤمن أن يعرف ما يتطلبه الوقت من عمل القلب واللسان والجوارح، فيتحراه ويجتهد في القيام به، حتى يقع موقعه من الموافقة للمقصود، ومن القبول عند الله عز وجل.

وقد جاء في وصية أبي بكر لعمر حين استخلفه: اعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار.

ليس المهم إذن أن يعمل الإنسان أي شيء في أي زمن، بل المهم أن يعمل العمل المناسب في الوقت المناسب، ولذلك وقت الله الكثير من العبادات والفرائض بمواقيت محددة، لا يجوز التقدم عليها، ولا التأخر عنها، ليعلمنا بذلك أن الشيء لا يُقبَل قبل أوانه، ولا بعد أوانه. قال تعالى في شأن الصلاة: (إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كِتاباً موقوتاً)[1]، وقال في الصوم: (فمَنْ شَهِد مِنْكُم الشهْرَ فليصمه)[2]، وفي الحج: (الحجُّ أشْهُر مَعلُومات)[3]. وفي الزكاة: (وآتوا حقه يومَ حصَادِه).

وعمل القلب مثل عمل اللسان، يجب أن يكون في وقته وزمانه.

يقول بعض العارفين: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه، أن هداه لها، ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته المعصية فسبيله التوبة والاستغفار.

---

(١) سورة النساء: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

(٣) سورة البقرة: ١٩٧.

ومن كان وَقته البلية فسبيله الرضا والصبر . والرضا : رضـا النفس عن الله . والصبر : ثبات القلب بين يدي الرب .

وما قاله هذا العارف، يعبر عما نطق به القرآن والسنة .

ففي مقام الطاعة يقول الله تعالى : (قُل بفَضْلِ الله وبرحمَتِه فَبذلِكَ فَلْيَفرحُوا هو خيْرٌ مِمّا يجمَعُون) [1] .

وفي مقام النعمة يقول الله تعالى : (كُلُوا من رِزقِ ربِّكُم، واشكُرُوا له، بَلدَةٌ طيبةٌ وربٌّ غَفُور) [2] .

وفي مقام المعصية يقول سبحانه : (قُل يا عبادي الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم، لا تقنَطوا من رحمَة الله إن الله يغفِر الذنوبَ جميعاً) [3] .

وفي مقام البلية يقول جل من قائل : (ولنَبلُوَنَّكُم بشيءٍ من الخوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ من الأموال والأنفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّر الصابرين . الذين إذا أصابَتْهُم مُصيبة قالوا : إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون) [4] .

وفي صحيح مسلم عن النبي - ﷺ - : « عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

تحري الأوقات الفاضلة:

وينبغي للمسلم الحريص على استباق الخيرات، أن يتحرى الأوقات التي ميزها الله بخصائص روحية معينة فضلها بها على غيرها . كما روي في الحديث: « إن لربكم في دهركم نفحات فتعرضوا لها » [5] .

وهذا التخصيص من شأن الألوهية وحدها، يختص برحمَتِه من يشاء وما يشاء . .

---

(١) سورة يونس : ٥٨ .

(٢) سورة سبأ : ١٥ .

(٣) سورة الزمر : ٥٣ .

(٤) سورة البقرة : ١٥٥، ١٥٦ .

(٥) رواه الطبراني من حديث محمد بن مسلمة وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير .

فكما فضل الله بعض الأشخاص على بعض، وبعض الأنواع على بعض، وبعض الأمكنة على بعض، فضل كذلك بعض الأزمنة على بعض (وربُّك يخْلُق ما يشاءُ ويختار، ما كان لهم الخِيَرةُ)[1].

فقد فضل الله في الليل ساعات السحر، وهي الثلث الأخير من الليل، حيث يتجلى الله على عباده كل ليلة، حيث ينزل إليهم، نزولاً يليق بجلاله، فينادي:

« هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى ينفجر الفجر »[2].

ولهذا وصف الله المتقين المحسنين بقوله: (إن المتقين في جنَّات وعيُون. آخذين ما آتاهُم ربُّهُم، إنَّهم كانوا قبل ذلك مُحسِنِين. كانوا قليلاً من الليل ما يهْجَعُون. وبالأسحار هُم يستغفرون)[3].

وقال ﷺ « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر؟ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن »[4].

وفضل الله تعالى من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، وهو العيدالأسبوعي للمسلمين، وفيه فريضة صلاة الجمعة، ولقاء الجمعة، وفيه ساعة إجابة، لا يصادفها مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له.

وقد صح في الحديث: « إن من غدا إلى الجمعة في الساعة الأولى كان كمن قدم بدنة، ومن ذهب في الساعة الثانية، (أي: في الفوج الثاني) كان كمن قدم بقرة، ثم كمن قدم شاة، فدجاجة.. فبيضة ثم تطوي الملائكة صحفها حين يصعد الخطيب المنبر ».

وفضل الله تعالى من أيام العام: أيام عشر ذي الحجة، وأفضلها يوم

---

(١) سورة القصص: ٦٨.
(٢) رواه أحمد، ومسلم عن أبي سعيد، وأبي هريرة معا.
(٣) سورة الذاريات: ١٥-١٨.
(٤) رواه الترمذي عن عمرو بن عبسة وصححه والنسائي، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وصححه البغوي أيضاً كما في الفيض.

عرفة، بل هو أفضل أيام العام على الاطلاق. جاء في الصحيح عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام أحب إلى الله العمل فيهن من هذه الأيام». يعني: العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله: قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا أن يخرج الرجل بنفسه وماله، فلا يرجع من ذلك بشيء» رواه البخاري.

وفضل الله من الشهور شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فرض فيه الصيام، وسن فيه القيام، واستحب فيه الإكثار من الصالحات، فهو موسم المؤمنين، ومتجر الصالحين، وميدان المتسابقين. وكان السلف يترقبونه بشوق ولهفة، قائلين: مرحباً بالمطهر. يرجون أن يغتسلوا به من أدران عيوبهم، ويتطهروا من أرجاس ذنوبهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

عن عبادة بن الصامت أن النبي - ﷺ - قال يوماً وقد حضر رمضان:

«أتاكم رمضان شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب الدعاء. ينظر الله إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل»[1].

ورمضان كله شهر مهم، ولكن أهم أجزائه: الثلث الأخير منه، أو العشر الأواخر منه.

وأهميتها لأمرين:

أولاً: أنها ختام الشهر، وإنما الأعمال بالخواتيم، ولهذا كان من الدعاء المأثور: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك».

ثانياً: أنها مظنة ليلة القدر، وهي الليلة التي جعلها الله خيراً من ألف شهر، وأنزل في فضلها سورة من كتابه: (إِنَّا أَنزلنَاهُ في لَيْلَةِ القدر. وما

(١) أورده السيوطي في «الجامع الكبير» ١/٨، ونسبه للطبراني وابن النجار.

أدراكَ ما ليلةُ القدر. ليلةُ القدرِ خَيْرٌ من ألفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الملائكة والرُّوحُ فيها بإذن رَبِّهم من كُلِّ أمر. سَلامٌ هي حتى مَطْلَعِ الفَجْرِ)

وهذه الليلة في رمضان يقينا بنص القرآن: أنه الشهر الذي أنْزل فيه القرآن، فهي ليلة من هذا الشهر وقد جاءت الأحاديث تأمر بالتماسها في العشر الأواخر منه.

وكان النبي - ﷺ - إذا دخل العشر الأواخر، شد مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله وكان يخصها بالاعتكاف.

وفضل الله من الشهور بعد رمضان: الأشهر الحرم، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

يقول الله تعالى:

(إنَّ عدةَ الشهُور عِندَ الله اثنا عشَر شَهْراً في كتاب الله يوم خَلَقَ السماوات والأرضَ منها أربعة حُرُم ذلك الدينُ القيم، فلا تَظْلِموا فيهن أنفُسَكم)[1].

وظلم النفس محرم في كل شهر، ولكنه في الأشهر الحرم أشد إثماً.

نظام الحياة اليومي للمسلم:

وينبغي للمسلم إذا أراد أن يبارك له في عمره أن يسير على نظام الحياة اليومي في الإسلام.

ويقتضي هذا النظام أن يستيقظ المسلم مبكراً، وينام مبكراً.

يبدأ يوم المسلم منذ مطلع الفجر، أو على الأقل قبل مشرق الشمس، وبهذا يتلقى الصباح طاهرا نقياً قبل أن تلوثه أنفاس العصاة الذين لا يفيقون من نومهم إلا في ضحى النهار.

وهنا يستقبل المسلم يومه من البكور الذي دعا الرسول لأمته بالبركة فيه،

---

(١) سورة التوبة: ٣٦.

حين قال: « اللهم بارك لأمتي في بكورها »[1] .

ومن الآفات التي ابتلي بها المسلمون أنهم غيروا نظام يومهم، فهم يسهرون طويلاً، ثم ينامون حتى تضيع عليهم صلاة الصبح . وقد قال بعض السلف: عجبت لمن يصلي الصبح بعد طلوع الشمس كيف يرزق!

ويروي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد . فإذا هو استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية، فإذا هو صلى انحلت عقده الثلاث، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

وما أعظم الفارق بين المسلم الذي انحلت عقد الشيطان كلها من نفسه، فاستقبل يومه من الصباح الباكر بالذكر والطهارة والصلاة، وانطلق إلى معترك الحياة، نشيط الجسم، طيب النفس، منشرح الصدر، وبين من ظلت عقد الشيطان فوق رأسه، فأصبح نؤوم الضحى، بطيء الخطا، خبيث النفس، ثقيل الجسم، كسلان!

يفتتح المسلم يومه بطاعة الله، مصلياً فرضه وسنته، تالياً ما تيسر له من أذكار الصباح المأثورة عن رسول الله ـ ﷺ ـ مثل:

« أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور »

« اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر »

« اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم نعمتك علي وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة »

(١) رواه احمد واصحاب السنن، وابن حبان والحاكم عن صخر بن وداعة الغامدي، وابن ماجه عن ابن عمر، والطبراني عن عدد من الصحابة وقد اعتنى الحافظ المنذري بجمع طرقه عن الصحابه فبلغوا نحو العشرين وهي وان كانت معلولة تقوى بانضمامها كما قال المناوي في التيسير، ولهذا ذكره الالباني في صحيح الجامع الصغير .

ثم يقرأ ما شاء الله له من كتابه الكريم بخشوع وتدبر وتفهم لمعانيه، كما قال تعالى: (كِتَاب أنزلناه إليك مُبَارك ليدَّبَرُوا آياته وليتذكر أولو الألباب)[1]

ويتناول فطوره باعتدال، ثم يتوجه إلى عمله اليومي ساعياً في تدبير معاشه، وطلب رزقه، يجتهد أن يشغل نفسه بأي عمل حلال، مهما كان من ذوي الثراء والمال، ولو كان مجرد الإشراف والرقابة، فإن المال السائب يعلم السرقة.

ومن هنا حرم الإسلام الربا لأنه نظام يلد المال فيه المال حتماً، بغير عمل ولا مشاركة ولا مخاطرة، فهو يقعد متربعاً على أريكته، ضامناً أن تأتي له المئة بعشرة، أو الألف بمئة، دون أدنى تحمل للمسئولية. وهذا ضد نظرة الإسلام إلى الإنسان: إنه خلق ليعمل ويعمر الأرض (هو أنشأكُم من الأرض واستعْمَركُم فيها[2]).

والمرء كما يأخذ من الحياة يجب عليه أن يعطيها، وكما يستهلك منها ينبغي أن ينتج لها. ولا يعيش عاطلاً متبطلاً، يأكل ولا يعمل، ولو كان ذلك بدعوى التفرغ لعبادة الله تعالى، إذ لا رهبانية في الإسلام!

روى البيهقي عن عبد الله بن الزبير قال: أشرُّ شيء في العالم البطالة. وعلق على ذلك العلامة «المناوي» في «فيض القدير[3]» قائلاً: وذلك أن الإنسان إذا تعطل من عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه، كان ظاهره فارغاً، ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان يبيض ويفرخ، فيتوالد فيه نسله توالدا أسرع من توالد كل حيوان. ومن لم ينفع الناس بحرفة يعملها، يأخذ منافعهم، ويضيق عليهم معايشهم، فلا فائدة في حياته لهم إلا أن يكدر الماء، ويغلي الأسعار.

ولهذا كان عمر إذا نظر إلى ذي سيما، سأل: أله حرفة؟ فإذا قيل: لا، سقط من عينه!

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة هود: ٦١.

(٣) فيض القدير جـ ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١.

ومما يدل على قبح من هذا صنيعه: ذم من يأكل مال نفسه إسرافاً وبداراً. فما حال من يأكل مال غيره، ولا ينيله عوضاً، ولا يرد عليه بدلاً؟

وشبه بعض الصالحين الصوفي الذي لا حرفة له بالبومة الساكنة في الخراب، ليس فيها نفع لأحد!

والمسلم يعتبر عمله الدنيوي عبادة وجهاداً، إذا صحت فيه النية، ولم يشغل عن ذكر الله، وأدى عمله باتقان وأمانة، فإن إتقان العمل فريضة على المسلم، كما قال - ﷺ - «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» رواه مسلم. وفي الحديث الآخر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» رواه البيهقي، وأبو يعلى، وابن عساكر عن عائشة.

ومن الواجبات اليومية التي لا يجوز للمسلم أن ينساها أو يهملها: واجبه نحو خدمة المجتمع ومساعدة أفراده على قضاء حوائجهم، وتسهيل أمورهم، ليكون له بذلك صدقة وصلاة.

روى الشيخان عن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قال: «على كل مسلم صدقة. قالوا: يا رسول الله، فإن لم يجد؟ قال: يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر، فإنه صدقة».

هذه الصدقة أو الضريبة الاجتماعية مفروضة على المسلم في كل يوم. بل صح الحديث أنها واجبة على كل مفصل من مفاصله، أو مِيسم من مياسمه، مع إشراقة كل شمس. وبهذا يصبح المسلم ينبوعاً يفيض بالخير والنفع والسلام لمن حوله، وما حوله.

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله - ﷺ - «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة،

والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» والمراد بالسلامى في الحديث: العظام والمفاصل والأعضاء، كما دلت على ذلك أحاديث أخرى، فهي نعمة على الإنسان ممن خلقه فسواه فعدله، وصوره في أحسن صورة، فعليه أن يشكر الله تعالى عليها، بأن يستخدمها في طاعته ونفع عباده، وإسداء الخير لهم بأي وجه من الوجوه المستطاعة.

وعند الزوال يؤذن للظهر، فيهرع المسلم إلى صلاته مجتهداً أن يؤديها في أول وقتها وفي جماعة ما استطاع، فأول الوقت رضوان الله، والله تعالى قد أمر باستباق الخيرات، والرسول - ﷺ - قد هم أن يحرق على قوم بيوتهم لتخلفهم عن الجماعات. وقد جعل صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، ولا سيما إذا كانت في المسجد.

ويتناول المسلم غداءه في وسط النهار، آكلاً من طيبات ما رزق الله، غير مسرف إلى حد التخمة ولا متقشف إلى حد الحرمان، كما قال تعالى: (يا بَني آدم خُذوا زينَتكُم عند كُلِّ مسجد وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفوا، إنه لا يُحبُّ المسرفين. قُل من حَرَّم زينةَ اللهِ التي أخرج لِعِبادِه والطَّيِّبات من الرزق[1]).

وفي البلاد الحارة، وفي فصل الصيف فيها خاصة، قد يحتاج بعض الناس إلى قيلولة يخلدون فيها إلى شيء من الراحة، يستعينون بها على قيام الليل، ويقظة البكور، وإليها أشار القرآن بقوله: (وحِينَ تَضَعُون ثِيابَكُم من الظَّهِيرة)[2].

فإذا جاء وقت العصر، ونادى مناديها: أن حي على الصلاة، قام المسلم من قيله إن كان قائلا أو من لجة عمله إن كان عاملاً، مسارعاً إلى هذه الصلاة التي تعتبر «الصلاة الوسطى» لليوم، ولا يجوز للمسلم أن يُشْغَل عنها ببيع أو

(١) سورة الأعراف: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة النور: ٥٨.

تجارة أو لهو، فالمؤمنون كما وصفهم الله في كتابه (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارة ولا بَيْعٌ عن ذِكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يَخَافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوبُ والأبصار)[1].

ولا يليق بالمسلم أن يؤخر صلاة العصر، تهاوناً بها، حتى تصفر الشمس وتدنو من الغروب، فهذه صلاة المنافقين، كما قال النبي - ﷺ - : « تلك صلاة المنافق. تلك صلاة المنافق. تلك صلاة المنافق: يرقب قرص الشمس، حتى إذا كانت بين قرني شيطان، قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا » رواه مسلم.

وعندما تغرب الشمس، يبادر المسلم إلى صلاة المغرب لأول وقتها، وبخاصة أن وقتها ضيق. فإذا أدى الفرض والسنة، تلا ما تيسر له من أذكار المساء المأثورة مثل: « اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفر لي »

ومثل أدعية الصباح التي ذكرناها، يقول بدل « أصبحنا » « أمسينا » وهكذا.

ويتناول المسلم عشاءه بغير إسراف ولا تقتير، ثم يصلي العشاء وما لها من سنن، ويؤخر (الوتر) إذا كان معتاداً الاستيقاظ من الليل، وإلا صلاه قبل النوم.

وقد يؤخر المسلم عَشاءه إلى ما بعد العِشاء، غير أنه إذا حضر العَشاء والعِشاء قدم العَشاء كما جاء في الحديث[2]، حتى لا يصلي المسلم وقلبه مشغول بغير مناجاة الله.

ويستطيع المسلم أن يقضي بعض الحقوق قبل نومه، كبعض الزيارات أو المجاملات.

(١) سورة النور: ٣٧.

(٢) ولفظه: « إذا اقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء » متفق عليه عن أنس وعن ابن عمر وهو وارد في صلاة المغرب، ولكنه مطرد في كل صلاة، نظرا للعلة، وهذا إن اتسع الوقت.

وينبغي أن يكون له حظ يومي من القَرَاءة المنتظمة طلباً للزيادة في العلم، كما قال الله لرسوله (وقُل ربِّ زِدنِي عِلماً)[١] ويحسن به أن يتخير من الكتب والمجلات ما ينفعه في دينه ودنياه، وقد قال حكيم: أخبرني ماذا تقرأ؟ أخبرك: من أنت!

ولا حرج على المسلم أن يمتع نفسه ببعض اللهو المباح، أو الترفيه المشروع في نهار أو ليل. على ألا يجور ذلك على حق ربه في العبادة، أو حق عينه في النوم، أو حق بدنه في الراحة، أو حق أسرته في الرعاية، أو حق عمله في الإتقان، أو أي حق من حقوق الغير.

ومن ثم لا يحسن بالمسلم أن يطيل السهر حتى لا يطغى على بعض هذه الحقوق، وإن لم يقصد إلى ذلك قصداً مباشراً، فإنه ما من طغيان في جانب إلا قابله إخسار في جانب آخر.

وهذا يخالف ما أمر به الرحمن، وما جاء به القرآن: (أن لا تَطْغَوا في الميزان، وأقيموا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخسِروا الميزان)[٢].

ومما يجب على المسلم أن يذكره ولا ينساه في كل يوم يمر: ألا يفرط في حق من الحقوق العشرة التي أمر الله تعالى برعايتها في كتابه فقال:

(واعبُدوا الله ولا تُشْرِكُوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، وبذي القُرْبى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى، والجار الجُنُبِ، والصاحِبِ بالجَنْبِ، وابن السبيل، وما ملكت أيمانُكُم)[٣].

فأول الحقوق وأعظمها هو حق الله تعالى، خالق الخلق، ومالك الأمر، وواهب الحياة، وصاحب النعم كلها. (وما بِكُم من نِعْمَةٍ فَمِنَ الله)[٤].

فلا يحل لمسلم التهاون في حقه أو الغفلة عنه.

(١) سورة طه: ١١٤ .
(٢) سورة الرحمن: ٨، ٩ .
(٣) سورة النساء: ٣٦ .
(٤) سورة النحل: ٥٣ .

وأظهر حقوق الله تعالى اليومية: الصلاة، التي جعل الله أول أوصاف المؤمنين الخشوع فيها (الذين هُم في صَلاتِهم خَاشِعُون)[1]، وآخر أوصافهم المحافظة عليها: (والذين هم على صَلَوَاتِهم يُحَافِظُون)[2]، وكتب الويل لمن تشاغل عنها حتى فات وقتها المعلوم: (فَوَيْلٌ للمُصَلِّين. الذين هُم عن صَلاَتِهم ساهُون)[3].

وثاني الحقوق هو: حق الوالدين، فالإحسان بهما يأتي في كتاب الله تالياً للتوحيد وإخلاص العبادة لله.

ويعطي القرآن والسنة عناية للأم خاصة، لأن حقها أوكد، وحاجتها إلى الرعاية أكثر، وعناءها في سبيل ولدها أكبر: (حَمَلَتْه أمه كُرهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصَالُه ثلاثون شهراً) [سورة الأحقاف: ١٥].

ولا يكتفي الإسلام ولا يرضيه أن يكون للأم يوم خاص من السنة يسميه الناس «عيد الأم» وإنما يريد الإسلام أن تكون أيام الأم كلها أعياداً.

وبعد ذلك يأتي حق ذوي القُربى من الأخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم، وغيرهم من أولي الأرحام.

وهناك حقوق الضعفاء في المجتمع من اليتامى والمساكين، وابن السبيل، وحقوق العشراء من الجيران الأقارب، والأباعد، والصاحب بالجنب ممن يرافق الإنسان في حضر أو سفر، بصفة دائمة أو مؤقتة، ويدخل في ذلك المرأة مع زوجها، والزوج مع امرأته.

وختام هذه الحقوق: حق ملك اليمين (وما مَلَكَت أيمانُكم) وهذا وإن كان ينصرف إلى الرقيق ووجوب الإحسان به في عصر الرقيق، فهو بعموم لفظه يشمل كل ما تحت يد الإنسان من حيوانات ومن أجهزة وآلات وأشياء. فهو مأمور بالإحسان بها، وذلك بأن يحافظ عليها ويصونها، ويرعاها ولا يبددها لأنه مؤتمن عليها، مستخلف فيها.

---

(١) سورة المؤمنون: ٢.
(٢) سورة المؤمنون: ٩.
(٣) سورة الماعون: ٤، ٥.

فإذا أراد المسلم أن يخلد إلى النوم، استحب له أن يتطهر، ويصلي ركعتين، ثم يأوي إلى فراشه مضطجعاً على جنبه الأيمن، ذاكراً الله تعالى، بما ورد عن النبي - ﷺ - عند النوم مثل قوله:

« باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه. إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »

وينبغي للمسلم أن يستفيد مما كتبه علماؤنا من كتب تبين له الأقوال والأعمال الدينية المطلوبة منه في صباحه ومسائه ويومه وليلته.

مثل ما كَتب الإمام النسائي في كتابه « عمل اليوم والليلة » وكذلك ما كَتبه الحافظ ابن السني تلميذ النسائي بنفس العنوان. وما كتبه الإمام النووي في كتابه « الأذكار » وما كتبه شيخ الإسلام ابن تيميه في كتابه « الكلم الطيب » وتلميذه الإمام ابن القيم في « الوابل الصيب » والعلامة ابن الجزري في « الحصن الحصين » وشارحه المحقق الشوكاني في « تحفة الذاكرين » وما كتبه المعاصرون وأقر بها رسالة « المأثورات » للإمام الشهيد حسن البنا.

وقت الإنسان بين الأمس واليوم والغد

الوقت أو الزمن الذي يعيش فيه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ماض وحاضر ومستقبل، أو أمس ويوم وغد.

والناس في علاقتهم بالزمن أو الوقت في أجزائه هذه عدة أصناف، يقفون عادة بين طرفي الإفراط والتفريط.

فهناك عبيد الماضي.

وبجوارهم عبّاد الحاضر.

وإلى جانبهم سدنة المستقبل.

وهناك المعتدلون المتوازنون، الذين يعطون لكلٍ منها حقه، بلا طغيان ولا إخسار، وقليل ما هم.

المتعلقون بالماضي:

فمن الناس من لا يكادون يعرفون من الزمن إلا الأمس. فهم يعيشون في الماضي وحده، لا يشعرون بغيره، ولا يهتمون بسواه، من يوم مشهود، أو غد منشود، سواء كان هذا ماضيهم الشخصي شأن «الرومانسيين» الهائمين، أم ماضي أسرهم وآبائهم، أو ماضي أقوامهم وأممهم، شأن الغلاة من «العظاميين» و «التراثيين».

ولهذا الصنف من عبيد الماضي عدة صور يظهر فيها:

أ ـ صورة من يحيا مفاخراً به، معتزاً بأمجاده، دون أن يضيف جديداً أو يقدم مزيداً يصل حاضره بماضيه، ويومه بأمسه، فهو دائماً يقول: كنا،

وكان آباؤنا وأجدادنا، ولا يجد ما يقول عنه: نحن فعلنا كذا، أو أنجزنا كذا.

ولمثل هؤلاء يقول المتنبي:

لئِنْ فَخَرتَ بآباء ذوي حَسَبٍ   لقد صدقت، ولكن بئس ما وَلَدُوا

وقال الآخر:

كُن ابن من شئتَ واكتَسِب أدباً   يُغنيك محمودُه عن النسب
إن الفتى من يقول: ها أنذا   ليس الفتى من يقول: كان أبي

إن الاعتزاز بأمجاد الماضي، ومآثر الأجداد، أمر محمود، إذا دفع إلى إكمال ما بدؤوا، والاقتداء بهم في خير ما فعلوا. ولكن الوقوف عند التغني بذلك لون من السلبية لا يقدم في بناء الأمم شيئاً.

وماذا يفيد العظام النخرة أن تقول: كنت فيما مضى جسداً حياً؟ إن الموقف الإيجابي هنا هو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

إنَّا وإن كرمت أوائلنا   لسنا على الآباء نتَّكلُ
نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ب - ويقرب من هذه الصورة: صورة «التراثيين» الذين يدعون إلى تقديس التراث بكل ما فيه من صواب وخطأ وجد وهزل، معتبرين أن الماضي دائماً خير من الحاضر، وأن الأول لم يترك للآخر شيئاً، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان.

مع أن الواجب هنا: تحديد مفهوم التراث، ثم تقويمه بعد ذلك.

فمن الناس من يدخل في مفهوم التراث عندنا نحن المسلمين: القرآن والسنة، وهذا ما لا خيار لنا في الالتزام به بموجب عقد الإيمان (وما كان لِمؤمن ولا مُؤمِنَةٍ إذا قضى اللهُ ورسوله أمراً أن يكونَ لهم الخِيَرةُ من أمرهم)[سورة الأحزاب: ٣٦].

فالجانب الإلهي من التراث لا يوضع موضع الاختبار أو التردد .

أما الجانب البشري ، فهو الذي يوضع في الغربال ، ويميز منه ما يقبل وما يرد ، فمنه ماله صفة المحلية لا العالمية ، فهو يحمل طابع موضعه الذي ظهر فيه ، ولا يصلح لمكان آخر . ومنه ما يحمل طابع زمنه ولا يصلح لزمن آخر . وهكذا .

ومن هنا كانت الدعوة إلى « المعاصرة » بجوار دعوة « الأصالة » أو المحافظة على التراث .

ج ـ وهناك صورة من يعيش في الماضي متشبثاً به ، مقلداً له ، لمجرد أن هذا ما كان عليه آباؤه الأقدمون . دون أن يمتحن هذا الماضي ليعرف حقه من باطله ، ورشده من غيه . فموقفه موقف المتلقي المنفذ ، لا المختبر المميز ، موقف المتبع لا المبتدع .

وفي مثل هذا يقول القرآن :

(وإذا قِيلَ لَهم : اتبعُوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نَتَّبع ما ألفينا عليه آباءَنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتَدون)[١] .

وهذا التفكير هو الذي وقف عقبة في وجه المرسلين من قديم الزمان ، فقد قال قوم هود له : (أجِئْتَنَا لنعبُد الله وحدَهُ ونذر ما كان يعبُد آباؤنا ؟)[٢] .

وقالت ثمود لصالح : (يا صالحُ ، قَد كُنتَ فِينَا مَرجُوًّا قبل هذا . أتنهانا أن نعبُد ما يعبُد آباؤنا ؟)[٣] .

ولما قال إبراهيم لقومه : (ما هٰذِهِ التماثِيلُ التي أنتم لها عاكِفُون؟ قالوا : وجدنا آباءَنا لها عابدين)[٤] .

وقال قوم شعيب له : (أصلاتُك تأمرك أن نترُكَ ما يعبُد آباؤنا ؟)[٥] .

---

(١) سورة البقرة/ ١٧٠ .
(٢) سورة الأعراف/ ٧٠ .
(٣) سورة هود/ ٦٢ .
(٤) سورة الأنبياء/ ٥٢ ، ٥٣ .
(٥) سورة هود/ ٨٧ .

وهكذا قرر القرآن هذه السنة: (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترَفُوها: إنَّا وجدنا آباءَنا على أمة وإنّا على آثارهم مُقتَدُون)[١] .

وقد أنكر القرآن على هذا الصنف من الناس هذا الجمود العقلي، وهذا التحجر على ما كان عليه الآباء، والتبعية العمياء لما توارثوه، وواجههم بمثل هذه العبارات: (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتَدُون)[٢] (أو لو كان آباؤُهم لا يعلَمون شيئاً ولا يهتَدُون)[٣] (قال: أو لو جِئتُكُم بأهدى مما وَجدتُّم عليه آباءَكُم[٤] ؟) .

د ـ وهناك صورة من يعيش في الماضي، نادماً عليه، متحسراً على ما فاته منه، مردداً دائماً عبارات التحسر والتمني: ليتني فعلت، وليتني تركت، ولو كنت فعلت كذا لكان كذا، ولو أني قدمت هذا وأخرت ذاك، لكان كذا وكان كذا .

وهذا اللون من التفكير أو الشعور، يلف الإنسان بمسوح الكآبة النفسية، ويحييه في نكد وقلق لا مبرر له، ولا فائدة منه، ويصيبه بالسلبية المدمرة، ولهذا قيل: الاشتغال بفوات وقت ماض تضييع وقت ثان .

ولا غرو أن أنكر القرآن والسنة هذا السلوك، يقول الله تعالى بعد ما أصاب المسلمين في غزوة أحد: (يا أيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانِهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزَّىً لو كانوا عِندنا ما ماتُوا وما قُتِلُوا، ليجعَل اللهُ ذلك حَسرة في قُلُوبِهِم، واللهُ يُحيِي ويُمِيتُ، والله بما تعملون بصير)[٥] .

وقال الرسول الكريم:

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير .

---

(١) سورة الزخرف/ ٢٣ .
(٢) سورة البقرة/ ١٧٠ .
(٣) سورة المائدة/ ١٠٤ .
(٤) سورة الزخرف/ ٢٤ .
(٥) سورة آل عمران/ ١٥٦ .

احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[1].

فالإيمان بقدر الله تعالى يدخل هنا عاملاً إيجابياً مؤثراً، ينتزع الإنسان من سلبية «لو» و «ليت» ونحوها إلى إيجابية العمل والبناء للمستقبل.

وفي هذا تغنى الشعراء، وإن من الشعر لحكمة...

ليتَ شعري، وأين منّي «ليت»؟ إنَّ «ليتاً» «وإنَّ» لوّاً «عناء!

وليس براجعٍ ما فات مني بـ«لهف» ولا بـ«ليت» ولا «لوانّي»

سبقت مقاديرُ الإله وحكمه فأرح فؤادك من «لعل» ومن «لو»

المتعبدون للمستقبل:

وفي مقابلة هؤلاء «الأمسيين» المسرفين في التعلق بالماضي بصورة أو بأخرى نجد آخرين يغالون في التشبث بالمستقبل، مديرين ظهورهم للماضي، معرضين عن تاريخهم، وتاريخ أمتهم وتاريخ الإنسانية إعراضاً تاماً، رافضين للمواريث الثقافية والدينية والحضارية، رفضا كاملاً، دون تمحيص ولا تمييز بين حقها وباطلها، وحلالها وحرامها، ونافعها وضارها.

يقولون: دعونا من الأجداد الذين ماتوا وشبعوا موتاً، وخلونا نبحث عن الشباب الذين سيكونون رجال الغد، بل عن الأطفال الذين سيكونون شباب الغد، بل عن الأجنة التي ستكون عن قريب أطفال الغد.

ويقولون: إن أعيننا لم تخلق في أقفيتنا لننظر إلى الوراء، بل خلقت في وجوهنا لننظر إلى الإمام. فلماذا تكلفوننا دائماً الالتفات إلى الخلف، وهو مما يعوق انطلاقنا وتقدمنا بسرعة نحو الهدف المنشود؟

يقولون هذا الكلام أو نحوه، وهو حق إذا قيل في وجه من يريدون أن

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

يحيا الناس في قمقم الماضي، لا يبرحونه ولا يخرجون منه، ولا يلتفتون إلى حق يومهم، وواجب غدهم.

ولكن هذا الكلام لا يكون حقاً، أو يكون من الحق الذي يراد به الباطل، إذا قصد به نسيان الماضي بكل ما فيه، ورفض التراث بكل ما يحويه، وإهالة التراب على التاريخ بكل ما يحمل من دروس وعبر وإيحاءات تهدي العقول والأبصار. وما أصدق قول الله تعالى في كتابه منبهاً إلى الاستفادة من الماضي وعبره: (أفلم يَسِيرُوا في الأرضِ فَتَكونَ لَهُم قُلُوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور)[1].

النظرة السلبية إلى المستقبل: نظرة اليأس والتشاؤم:

ومن الناس من ينظر إلى الغد ويفكر فيه، ولكنها نظرة المتشائم، الذي يضع على عينيه منظاراً أسود قاتماً، ينظر من خلاله إلى الحياة والأحياء والزمان والمكان، فهو يئوس قنوط، فقد الثقة بالغد والأمل في الفوز... قد استقر في نفسه أن الأمور لا تسير من سيء إلا إلى أسوأ، ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ، وأن الحياة ليل لا يشقه فجر، ولا يمحو ظلامه شمس.

وهذه لا ريب نظرة هدامة محطمة: هدامة للإنسان نفسه، وهدامة للحياة والمجتمع من حوله.

فحياة الفرد من غير شعاع الأمل أضيق من حلقة الخاتم، بل من سم الخياط، وقديماً قال الشاعر: ما أضيق العيش لولا فُسْحَةُ الأمل!

وحياة المجتمع بدون الأمل، حياة جامدة ميتة لا روح فيها، ولا حراك، فلولا الأمل، ما بنى بان بنياناً، ولا غرس غارس غرساً، ولا تقدم العلم خطوة إلى الأمام.

والواقع أن الدين والتاريخ والواقع كلها تعلمنا: أنه لا معنى للحياة مع

(١) سورة الحج: ٤٦.

اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة، وأن مع العسر يسرا، وأن بعد الليل فجراً، وأن دوام الحال من المحال.

يقول الله تعالى: (إنه لا ييأسُ من روح الله إلا القومُ الكافرون)[1].

وفي آية أخرى قال تعالى: (ومَنْ يَقنَطُ من رحمة ربِّه إلا الضالون)[2].

وقال الشاعر:

ولرُبَّ نازلة يضيقُ بها الفتى ... ذرعاً، وعند الله مِنها المخرجُ
ضاقتْ فلما استحكمت حلقاتُها ... فُرِجَتْ وكنتُ أظنُّها لا تُفرجُ

وقال آخر:

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد آذنَ ليلُك بالبَلَجِ

ومن صور اليأس ومظاهر التشاؤم: ما آمن به كثير من الناس أننا اليوم في آخر الزمان وأن علامات الساعة قد ظهرت، وأن الخير في إدبار، والشر في إقبال، وأن التدين يخبو مصباحه يوماً بعد يوم حتى يتم انطفاؤه، وأن الكفر سيعم الأرض، حتى لا تقوم الساعة إلا على كافر ابن كافر، وإذن لا أمل في علاج، ولا رجاء في إصلاح.

ويستدلون لهذه النظرية اليائسة بالأحاديث الواردة في الفتن وأشراط الساعة.

وليس الأمر كما فهم هؤلاء بنظرهم السطحي، وفهمهم القاصر. فإن ما ورد في نصوص الدين من قرب قيام الساعة، وظهور أماراتها البعيدة، لا يعني أنها على الأبواب. فإن القرب والبعد كلاهما أمر نسبي، ومن يدري لعل بيننا وبينها آلافا من السنين لا يعلمها إلا الله، ولعلها أقرب مما نتصور! والقرآن لم يزد على أن قال: (لعَلَّ السَّاعة تكونُ قريباً)[3] (لعَلّ السَّاعة قَريب)[4] كما قال

---

(١) سورة يوسف ٨٧.
(٢) سورة الحجر ٥٦.
(٣) سورة الاحزاب/ ٦٣.
(٤) سورة الشورى / ١٧.

(لا تأتِيكُم إلا بَغْتَة)[1] .

وبعثة نبينا - ﷺ - نفسها من علامات الساعة، فقد قال: « بعثت أنا والساعة كهاتين . . وشبك بين السبابة والوسطى »[2] .

فالقعود عن العمل لإحياء شريعة الإسلام، وأمة الإسلام، ودولة الإسلام، انتظاراً لقيام الساعة، واعتماداً على أننا في آخر الزمان، أمر ينكره الدين أشد الإنكار، فإن المسلم مأمور بالعمل والجهاد ما دام فيه عين تطرف، والمسلمون باعتبارهم أمة مأمورون بذلك، حتى يُغْلَق باب التوبة، وذلك في الأيام الأخيرة من عمر الدنيا، حين تضطرب السنن التي وضعها الله لهذه الحياة، فتطلع الشمس من مغربها (يوم يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا ينفعُ نَفساً إيمانُها لم تكُن آمنَتْ من قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً)[3] .

ولقد جاء عن الرسول الكريم الأمر بالاستمرار في العمل الدنيوي - وهو أهون في نظر الدين - حتى تلفظ الحياة نفسها الأخير، وذلك حين قال: « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها »[4] .

فإذا كان المسلم مأمورا ألا يدع غراسه وإن سمع النفخ في الصور، حتى يتم عمله ما استطاع، وإن لم ينتفع به هو ولا أحد من بعده، فكيف وبيننا وبين الساعة آماد مجهولة، لا يعلم مقدارها إلا خالق الكون سبحانه؟

إن العمل مطلوب في حد ذاته، ولو لم يحقق ثمرة عاجلة لصاحبه، فإن حققها فقد فاز بالحسنيين، وإلا فحسبه أنه جاهد وسعى، وأدى الواجب، وأعْذر إلى الله، وأقام الحجة على المخالفين، فلا عذر لهم عند الله تعالى، وسأذكر لك بعض الاحاديث في ذلك تتبين منها المراد:

---

(١) سورة الأعراف/ ١٨٧ .

(٢) رواه الشيخان.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٨ .

(٤) رواه احمد والبخاري في الادب المفرد وعبد بن حميد والبزار، والطيالسي والديلمي عن انس قال الهيثمي ورجاله ثقات واثبات. وذكره الالباني في صحيح الجامع الصغير.

١ - روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: « ستكون بعدي فتن كقطع الليل المظلم. قلت: وما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ».

٢ - « بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا » رواه مسلم.

٣ - وروى أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث أبي ثعلبة الخشني:

« إن من ورائكم أيام الصبرِ، الصَّبْرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثله. قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم »

وفي بعض روايات هذا الحديث تعليل لمضاعفة هذا الأجر بقوله:

« تجدون على الخير أعواناً، ولا يجدون على الخير أعواناً »

٤ - روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان قال:

« كان الناس يسألون رسول الله - ﷺ - عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، قال: قلت يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. فقال: هم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا »

فهل ترى في هذه الأحاديث إلا تحذيراً من الشر، وترغيباً في الخير، وتثبيتاً على الحق، وحثاً على التمسك بكتاب الله، والصبر على طاعته، والاعتصام بحبله، ومقاومة دعاة السوء الواقفين على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها..؟

مواجهة المستقبل بالأماني والأحلام:

ويقابل هذا الموقف السلبي من المستقبل، - موقف اليأس والقنوط - موقف سلبي مثله، وهو مواجهة المستقبل بالأماني المجردة، والأحلام الفارغة، لا بالعلم والعمل والتخطيط.

والأماني لا تبني مجداً، ولا تحقق أملاً، بل هي كما قال كعب بن زهير:

إن الأماني والأحلام تضليلُ!

قال رجل لابن سيرين: إني رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح! فما تفسير هذه الرؤيا؟ فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام!

وقال علي بن أبي طالب لابنه: إياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النوكى،أي: الحمقى.

وقال الشاعر:

أعلل بالمنى قلبي لعلي ... أروح بالأماني الهمَّ عني
وأعلم أن وصلَكِ لا يُرجّى ... ولكن لا أقل من التمني

وقال آخر:

ولا تكن عبد المنى، فالمنى ... رؤوس أموال المفاليس!

ولا غرو أن أنكر القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، تعلقهم بالأماني في دخول الجنة بغير أسبابها، وموجباتها من الإيمان والعمل.

يقول الله تعالى: (وقالوا: لَن يَدخُل الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نصارى، تلك أمانِيُّهُم، قل: هَاتُوا بُرهَانَكُم إن كُنتم صادقين. بلى مَنْ أسلم وجْهَهُ لله وهو مُحسِنٌ فله أجره عند ربِّه ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحْزنُون)[1].

ولم يقف القرآن عند حد الإنكار على أهل الكتاب، بل أشرك معهم المسلمين ممن حذا حذوهم ممن ظن أن مجرد التسمي بالإسلام أو الانتساب

(١) سورة البقرة: ١١١، ١١٢.

إليه، ينجيه عند الله، قال تعالى: (ليس بأمانيّكُم ولا أمانيِّ أهلِ الكِتَابِ، مَنْ يعمَل سُوءاً يُجزَ به، ولا يَجِد له من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصَّالِحَات مِنْ ذكر أو أنثى وهو مُؤمنٌ فأُولئِك يدخلُون الجنَّة ولا يُظْلَمون نَقِيراً)[1].

إن القرآن ينكر الاعتماد على الأماني، ولكنه لا ينكر الرجاء، وفرق بين الأمرين: فالرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية.

ولهذا اعتبر الحديث النبوي من العجز والحمق اتباع هوى النفس، والجري وراء شهواتها، اتكالاً على عفو الله تعالى، ومغفرته وسعة رحمته، مع قول الله تعالى: (إنَّ رحمَة الله قَريبٌ من المحْسِنين)[2].

وقوله تعالى (ورحمَتي وسِعَت كلَّ شيء، فَسَأكتبها للذين يتَّقون ويُؤْتُون الزَّكاة، والذين هُم بآيتنا يُؤمِنُون)[3].

وفي هذا جاء الحديث «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[4].

أما الرجاء فالقرآن ينوه به، ويثني على أهله في مثل قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هَاجَروا وجَاهَدُوا في سبيل الله، أولئِك يَرْجُون رحمَة اللهِ، والله غفُور رَحِيم)[5].

وقال بعض الصالحين: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا اتباع للسنة نوع من الغرور، وارتجاء رحمة الله مع المعاصي حمق وجهل.

وقال الحسن: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقول أحدهم: أحسن الظن بربي! وكذب. لو أحسن الظن لأحسن

---

(١) سورة النساء: ١٢٣، ١٢٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥٦.
(٣) سورة الأعراف: ١٥٦.
(٤) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجة، وفي سنده ضعف، وصححه الحاكم، فردَّه عليه الذهبي.
(٥) سورة البقرة: ٢١٨.

العمل له. وتلا قول الله تعالى (وذَلِكَ ظَنُّكُم الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُم أرداكُم فأصْبَحْتُم من الخَاسِرين)[1].

وكان يقول أيضا: «يا أيُّها الناسُ، اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية النوكى فيحلون فيها. فوالله ما آتى الله عبداً بأمنية خيراً في الدنيا ولا في الآخرة».

عشاق اللحظة الحاضرة:

وهناك أناس لا ينظرون إلى الماضي، ولا يتطلعون إلى المستقبل. إنهم يعيشون ليومهم وفي يومهم. الماضي قد فات، وما فات مات، وما مات لا يسوغ الاشتغال به أو التفكير فيه.

والمستقبل عندهم غيب، والغيب مجهول، ولا ينبغي للإنسان الواقعي أن يتعلق بمجهول لأنه كالبناء على الرمل، والكتابة في الهواء.

هاؤلاء قد ألهاهم الاستغراق في يومهم عن التطلع إلى غدهم، كما ألهاهم عن الاستفادة من أمسهم.

إنهم أبناء يومهم وحاضرهم فحسب، لا يهتمون بالآخرة، لأنها مستقبل، وهم لا يبيعون نقداً بنسيئة، ولا عاجلاً بآجل، ولا يشغلون أنفسهم بالتاريخ والتراث، لأنه ماض انتهى، ومعنى أنهم أبناء يومهم: أنهم لا يفكرون ولا يهتمون إلا باللحظة الآنية الحاضرة، يعتصرونها ويرتشفونها، وينعمون بها، دون أن ينغصوا على أنفسهم بتذكر الأمس، أو التفكر في الغد.

ويتمثل أنصار هذا الاتجاه بقول الشاعر العربي:

ما مضى فات، والمؤمّلُ غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

وهذا كلام يصلح لأن يقوله المؤمنون المستقيمون، والماديون المتحللون.

فإذا لم تكن للإنسان إلا الساعة التي هو فيها، فلماذا يضيعها؟ ولماذا لا يستغلها في طاعة الله؟ وفي نصرة الحق، وفعل الخير، وإشاعة المعروف؟

---

(١) سورة فصلت: ٢٣.

ولهذا ينسب هذا البيت نفسه إلى بعض الصالحين حيث يقول:

إنما هـــذه الحيـــاة متـــاعٌ فالجهولُ المغرور مَـنْ يصطفيهَـا
ما مضى فـات والمؤمَّلُ غيـب ولك الساعـة التي أنت فيهـا

والحق أن الحاضر عند التحليل والتأمل ليس إلا خطأً وهمياً بين الماضي والمستقبل، وهذا ما جعل بعض الشعراء يقول:

ما الدهرُ إلا ساعتـان: تـأمـل فيما مضى وتفكـــر فيما بقـــى

أي: أنه ألغى الحاضر تماماً، ولكن ينبغي أن يعلم أن الحاضر في عرف الناس هو اللحظة الحاضرة متصلة بالجزء القريب من المستقبل، الذي يعتبره الإنسان كأنما قد حضر بالفعل.

النظرة الصحيحة إلى الزمن:

والنظرة الإسلامية الصحيحة هي التي تستوعب الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً.

لابد من نظرة إلى الماضي:

للاعتبار بأحداثه، والاتعاظ بمصاير أممه، وبسنن الله فيهم، فهو وعاء الأحداث، ومخزن العبر. قال تعالى: (قد خلَت مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرض فانظُروا كَيفَ كان عَاقِبةُ المكذبين.. إن يَمْسَسْكُم قَرحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرحٌ مِثْلُهُ، وتِلكَ الأيامُ نُدَاوِلُها بين الناس)[1].

(وكأيّن من نَبيٍّ قاتل مَعَهُ ربِّيُّون كثيرٌ، فما وَهَنُوا لما أصابَهُم في سبيل الله، وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابرين)[2].

(أفلم يَسِيرُوا في الأرض فتكونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُون بها أو آذانٌ يسْمَعُون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور)[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٧-١٤٠.
(٢) سورة آل عمران: ١٤٦.
(٣) سورة الحج: ٤٦.

ثم للاستفادة مما تركه السابقون للاحقين من علوم وآداب وفنون، بعد أن نمحصها ونحققها، ونأخذ منها ما يليق بعصرنا وأحوالنا.

وفي الحديث: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»[1].

وليس من الصواب ترك القديم لمجرد أنه قديم، فمن الأشياء ما يعتبر القدم مزية له وفضلاً فيه وهو بطبيعته لا يقبل التجديد.. أليس فضل القرآن أنه كلام الله الذي لا تَخلَق جدته، ولا يبلى على مضي الزمن وكر الدهور؟

أليس فضل الكعبة أنها «البيت العتيق» المحجوج المقصود على توالي القرون؟

إن القرآن لا يُجدَّد، والكعبة لا تُجدَّد، والحقائق لا تجدد.

لقد أسرف أنصار التجديد حين أعرضوا عن كل قديم، وصفقوا لكل جديد، مع أن من القديم ما هو نافع أعظم النفع، ومن الجديد ما هو ضار أبلغ الضرر. وقد سخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي حين قال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!

وقال عنهم أمير الشعراء شوقي في قصيدته عن (الأزهر) منددًا بخصومه من أدعياء التجديد:

لا تحذُ حَذوَ عِصابةٍ مفتُونَةٍ ... يجدون كلَّ قديم أمرٍ منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائِهم أو عُمّرا
من كل ساعٍ في القديم وهدمه ... واذا تَقَدَّم للبنايةِ قصَّرا

على أن القدم والجدة أمران نسبيان، فرب قديم عند قوم هو جديد عند آخرين، ورب جديد في بيئة يعتبر قديماً في أخرى، والجديد لا يبقى جديداً أبد الدهر، فقديم اليوم كان جديد الأمس وجديد اليوم سيكون قديم الغد.

ولا بد من وقفة مع كل يوم يمضي، ليحاسب الإنسان فيه نفسه: ماذا عمل فيه؟ ولماذا عمل؟ وماذا ترك؟ ولماذا ترك؟ وحبذا أن يكون ذلك قبل النوم.

(١) رواه الترمذي وابن ماجه. بسند ضعيف

إن لحظة المحاسبة للنفس لتعد من لحظات الارتقاء الإنساني، حيث يجرد الإنسان من عقله حاكماً على شهوته، ومن ضميره حاكماً على هواه، ويجعل الإنسان المؤمن من إيمانه شرطياً يراقب ومفتشاً يحاسب، وقاضياً يحكم. وبهذا يرتقي الإنسان من حالة «النفس الأمارة بالسوء» إلى حالة «النفس اللوامة» التي تلوم صاحبها إذا أقدمت على محظور، أو قصرت في فعل مأمور.

وفي الحديث الذي ذكرناه من قبل: «ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ومنها: ساعة يحاسب فيها نفسه».

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»

وكان رضي الله عنه يضرب قدميه بالدرة إذا جن الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟!

ويقول التابعي الجليل ميمون بن مهران: التقي أشد حساباً لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح!

ويقول الحسن: المؤمن قوام على نفسه، يحاسبها لله. وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك! (وهذا حساب قبل العمل).

ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله (وهذا حساب بعد العمل).

فمن لم يقف كل يوم هذه الوقفة فليقفها كل عدة أيام، أو في كل أسبوع مرة يعرف فيها: ماذا له؟ وماذا عليه؟

ثم ينبغي أن تكون هناك وقفة أطول في ختام كل شهر، ووقفة أطول وأطول حين يودع عاماً ويستقبل عاماً للمراجعة والتدقيق فيما فات، واستصلاح ما هوآت، فهي كالحساب الختامي للعام!

ومن البدع الغريبة التي ابتكرها الغربيون، وقلدهم فيها ـ للأسف ـ بعض المسلمين، أن يقيم أحدهم ـ كلما انقضت سنة من عمره ـ حفلاً بهيجاً يقدم فيه ما لذ وطاب من الطعام والشراب، يسميه الناس « عيد ميلاد »!

وقد تواضع الناس على طقوس وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، كاضاءة شموع بعدد سنوات عمر المختص به أو عقودها، ثم اطفائها في حركة مسرحية، وتبادل التهاني والهدايا بهذه المناسبة.

وكان أولى بالإنسان العاقل ـ بدلاً من هذا التقليد الأعمى الذي لا معنى له ولا فائدة منه ـ أن ينتهز هذه المناسبة من انقضاء عام من حياته، ليقف وقفة تأمل وتفكير، كما يقف التاجر الواعي على رأس كل عام ليراجع سجلاته وموجوداته وديونه، ليدرك ما له وما عليه، وليعرف خسائره من أرباحه، سائلا الله أن يكون يومه خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه.

كان أولى بالإنسان العاقل أن يحاسب نفسه على سنة كاملة انسلخت من عمره، سيسأله الله تعالى عنها، وهي ليست بالزمن القليل.. إنها سنة!!، أي: اثنا عشر شهراً، الشهر ثلاثون يوماً، اليوم أربع وعشرون ساعة، الساعة ستون دقيقة، الدقيقة ستون ثانية، كل ثانية فيها نعمة من الله عليه، وأمانة من الله لديه.

كان أولى بهذا الإنسان العاقل: أن يأسى على نفسه، بما انهدم من بنيان عمره، وما طوي من كتاب حياته، فكل يوم يمضي إنما هو ورقة من شجرته، قد ذوت وسقطت.

ورحم الله الحسن البصري حين قال: يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك!

وكان أبو علي الدقاق ينشد:

كل يوم يمر يأخذ بعضي يورث القلب حسرة، ثم يمضي!

وقال شاعر آخر:

يسر المرءُ ما ذهب الليالي   وكان ذهابهن له ذهابا

وقال غيره:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها   وكل يوم مضى جزء من العمر

كان هذا أولى بالإنسان العاقل، ولكن العقلاء في الدنيا قليل.

ونظرة إلى المستقبل:

ولا بد من نظرة إلى المستقبل.

والإنسان بفطرته مشدود إلى المستقبل، لا يستطيع أن يغفله أو يجعله دبر أذنيه.

وكما رُزِقَ الإنسان ذاكرة تربطه بالماضي وما فيه، رُزق أيضاً مخيلة تصور له المستقبل وما يتوقع فيه.

ومن خصائص المستقبل أنه غيب مجهول، لا يعرف أحد ماذا يخبىء في صدره من أسرار، وماذا يضمر له من خير أو شر؟ (وما تدري نَفْس ماذا تَكْسِبُ غداً)[1].

ومن خصائصه: أن كل آت فيه قريب، مهما ظن المرء أنه بعيد، أو متراخ، ولهذا قيل: إن مع اليوم غداً، وإن غدا لناظره قريب، وقال الله تعالى في القرآن: (وما أمرُ السَّاعةِ إلا كَلَمحِ البَصَرِ أو هو أقرب)[2].

والعاقل هو من يأخذ أهبته للمستقبل، ويتهيأ للأمر قبل وقوعه، قال تعالى: (يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله ولتَنظُر نَفسٌ ما قدمت لِغَدٍ)[3].

والذين يظنون أن الدين يعلق الإنسان بالماضي يخطئون فهم جوهر الدين وحقيقته.

إن مهمة الدين الكبرى هي إعداد الإنسان لحياة الخلود، أي: إعداده للمستقبل، لدار هي خير وأبقى من هذه الدار.

---

(١) سورة لقمان: ٣٤.

(٢) سورة النحل: ٧٧.

(٣) سورة الحشر: ١٨.

فالنظرة المستقبلية أساسية في أصل الدين .

وفي الحديث « إن العبد بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدر ما الله قاضٍ فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الهرم فوالذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

وليس معنى هذا أن الإنسان المتدين لا يهتم إلا بمستقبله الأخروي، مغفلاً مستقبله الدنيوي . كلا . . فالمسلم قد علمه الإسلام أن يحتاط لغده، ويعد له عدته، ويأخذ حذره، ويتخذ الأسباب المعينة له، وسواء أكان ذلك في أمور الدين أم أمور الدنيا .

وإذا كان الرسول هو القدوة العليا للمؤمنين، فنحن نجده يبحث عن مستقبل دعوته حين بايع الأوس والخزرج، وفكر في أمر الهجرة، سعياً وراء قاعدة صلبة لإقامة شريعة الإسلام ومجتمع الإسلام .

وهل كانت بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، ثم الإعداد للهجرة إلى يثرب الا عملاً دؤوباً، وتخطيطاً محكماً لمستقبل الإسلام؟

وفي أمور الدنيا نجده ـ ﷺ ـ يدخر لأهله قوت سنة، ولا يرى في ذلك منافاة للتوكل على الله، لانه لا يتنافى مع الاخذ بالاسباب .

الاهتمام بالحاضر:

وإذا كان لا بد للمؤمن من وقفة مع الماضي للاعتبار والاستفادة والمحاسبة، ومن نظرة إلى المستقبل لإعداد العدة، وتهيئة الزاد، (ولتنظر نفس ما قدمت لغد)، فلا بد من توجيه اهتمام خاص إلى الحاضر، إلى الساعة التي نعيشها بالفعل لنغتنمها قبل أن تفلت وتضيع .

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في « إحيائه » :

« الساعات ثلاث: ساعة لا تعب فيها على العبد، كيفما انقضت: في مشقة

أو رفاهية، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد: أيعيش إليها أم لا؟ ولا يدري ما يقضي الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه، ويراقب فيها ربه. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله إلى خمسين سنة، فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، كأنه في آخر أنفاسه وهو لا يدري. وإذا أمكن أن يكون هذا آخر أنفاسه، فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت، وهو على تلك الحالة، وتكون أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم»

وما روي عنه أيضاً في معناه: «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب» فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات. ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح».

وقال الشاعر:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدَّلاً	وأصبحت في يوم عليك شهيدُ[1]
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة	فثنّ بإحسان وأنت حميد
ولا تُرجِ[2] فِعْلَ الخير يوماً إلى غد	لعل غداً يأتي وأنت فقيد
فيومك إن أعتبته عاد نفعه	عليك، وماضي الأمس ليس يعود

(١) شهيد بالرفع: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو عليك شهيد.
(٢) أي لا ترجىء فعل الخير، بمعنى: لا تؤخره.

ومن أروع ماجاء في الحث على العمل للحياة قياماً بحق الوقت الحاضر، هذا الحديث النبوي العجيب الذي مر بنا من قبل، وفيه يقول ﷺ : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغيرة) فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها » .

وهنا نقف وقفة تحليلية لهذا الحديث البالغ الروعة، ونتساءل: لماذا يأمر الرسول صاحب الفسيلة أن يغرس فسيلته إن استطاع ذلك؟

إنه لن يعيش حتى يجني ثمرة ما غرس، فهو هنا لا يغرس اليوم ليجني في الغد .

وهو لا يغرس ما يغرس ليأكل منها من بعده، كما قيل لشيخ هرم يغرس شجرة زيتون: لماذا تغرسها وأنت على حافة القبر؟ فقال: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا .

أما في الموقف الذي ذكره الحديث، فلن يعيش أحد حتى يأكل غداً ما يغرس اليوم، فإن الساعة قد قامت أو أوشكت، ولا أمل لأحد في حياة .

إذن لماذا الغرس في هذه اللحظة؟

إن الأمر الواضح هنا: أنه تكريم للعمل، لذات العمل، انتفع بثمراته أحد أم لم ينتفع، وإشعار بأن الإنسان المسلم لا يدع عمارة الأرض، والانتاج للحياة، ولا يكف عن العمل والعطاء ما دامت الحياة قائمة، وأنه لا يجوز أن يعيش بغير عمل لحظة من الدهر وإن كان إسرافيل قد أمسك بالصور لينفخ فيه،ويتهدم بعدها سرادق الحياة كلها .

إن غرس الفسيلة في مثل هذا الموقف يمثل القيام بحق الوقت الحاضر، حق اللحظة الواقعة، بغض النظر عن الماضي أو المستقبل .

كيف يطيل الإنسان عمره؟

مما لا شك فيه أن الإنسان بفطرته يحب الحياة، ويحب أن يطول عمره فيها، بل يحب الخلود فيها لو استطاع، ومن باب هذه الغريزة - غريزة حب الخلود - دخل إبليس إلى أبي البشر آدم، ودلاه بغروره ليأكل من الشجرة التي نهي عنها (فوسوس إليه الشيطانُ، قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلد ومُلْكٍ لا يبلي؟)[1].

والدين نفسه يعتبر طول العمر نعمة اذا استخدم في نصرة الحق، وعمل الخير.

سئل النبي - ﷺ - أي الناس أفضل؟ فقال: من طال عمره وحسن عمله »[2]

ولكن مما لا شك فيه أيضاً، أن الموت قد نغص على الناس الحياة، فكثيراً ما اختطف الشاب في ريعان شبابه، والعروس في أول أيام عرسه، والوحيد المدلل من بين يدي أهله، والغني المرفه من أحضان نعمته ورفاهيته، والحاكم المرهوب من بين حرسه وحشمه، ولهذا سمي « هاذم اللذات، ومفرق الجماعات ».

وإذا كان الموت خاتمة المطاف ونهاية الحياة، فالعمر لا ريب جد قصير، مهما طال بالإنسان الأمل، ومد له في الأجل، إنما هو أيام معدودة، وأنفاس محدودة، يقطعها الموت بغير استئذان، ويترك صاحبها في خبر « كان ».

حكـمُ المنيـة في البريـة جـــار ... مـا هـذه الدُّنيـا بـدارِ قـــرار

بينا يُـرى الإنسـان فيهـا مخبرا ... حتى يُـرى خبراً مـن الأخبـار

وفي الحديث الشريف: « عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ومسؤول عنه »[3].

---

(١) سورة طه: ١٢٠.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني باسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد، وغيره، كما في الترغيب للمنذري.

(٣) رواه الطبراني في « الصغير » و « الأوسط » من حديث علي، والشيرازي في « الألقاب » من حديث سهل بن سعد: إن روح القدس نفث في روحي: أحبب من أحببت.

وصدق أبو العتاهية حيث قال :

بين عينيْ كـل حـي   علم الموت يلـوحُ
نـحْ على نفسـك يـا   مسكين إن كنت تنوح
لتمـوتـن وإن عُمِّـ   ـرت ما عُمِّـر نـوحُ

ولم يستطع الطب الذي وصل إلى زرع قلب مكان قلب ، ولا العلم الذي وصل بالإنسان إلى سطح القمر ، أن يقاوم الهرم ، ويعيد للشيخ الشباب بعد أن رد إلى أرذل العمر ، وصدق رسول الله - ﷺ - حيث قال: « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء إلا الهرم »[(١)] .

وإذا كان عمر الإنسان محدوداً بهذه الصورة ، فأنى له أن يطيله ، وكيف يستطيع ؟

والحق أن العمر الحقيقي للإنسان ليس هو السنين التي يقضيها من يوم الولادة إلى يوم الوفاة . إنما عمره الحقيقي بقـدر مـا يكتب له في « رصيده » عند الله من عمل الصالحات وفعل الخيرات .

ولا غرو أن تجد إنساناً يعمَّر أكثر من مائة سنة ،ولكن رصيده من تقوى الله ونفع عباده صفر أو ما دون الصفر ، أي : أن رصيده مدين ، إذا تحدثنا بلغة المصارف .

وقد يموت إنسان آخر شاباً ، ولكن رصيده في سنيه القلائل بعد سن التكليف ، حافل عامر بجلائل الأعمال .

يقول صاحب الحكم : « رب عمر اتسعت آماده ، وقلت أمداده . ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده . من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة » .

وإذن يستطيع المرء أن يطيل عمره بمقدار ما يوفق إليه من عبادة الله تعالى ، والإحسان إلى خلقه ، وكلما توافر لعمله الإخلاص والإتقان ، كان فضله وأجره أعظم عند الله .

---
(١) رواه البخاري .

وعلى قدر ما يكون لعمله من الفائدة والتأثير في حياة الآخرين تكون قيمته ومنزلته، كأن يدلهم على هدى، أو ينقذهم من ردى، أو يفرج عنهم كربة، أو يرفع عنهم ظلماً، أو يدفع عنهم عدواً أو غير ذلك من الأعمال التي يتعدى نفعها إلى أفراد أو جماعات من الناس أو إلى أمة بأسرها.

ومن هنا كان عمل مثل الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله في قمة الأعمال مكانة عند الله تعالى. يقول رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[1].

وقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[2].

وكذلك عدل الأئمة والولاة، لما فيه من إسداء الخير إلى مجموعات كبيرة من البشر قد تكون شعوبا وأمما. ولما فيه من جهاد للنفس، ومقاومة لنوازع الهوى، وبواعث المحاباة، أو الجور، ولهذا جاء في الحديث: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»[3].

ومر رجل من أصحاب النبي - ﷺ - بشِعْب فيه عيينة من ماء عذب، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب (يعني: للتعبد)، ولن أفعل حتى أستاذن من رسول الله ﷺ، فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله. منَ قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»[4].

وهكذا تتفاضل الأعمال وتتفاوت بمؤثرات شتى، والسعيد من حرص على

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري عنه أيضا.

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث ابن عباس، وإسناد الكبير حسن كما في الترغيب.

(٤) رواه الترمذي وحسنه، والحاكم، وصححه على شرط مسلم من حديث أبي هريرة.
والعيينة: تصغير عين. وفواق الناقة: ما بين رفع يدك عن ضرعها وقت الحلب ووضعها. وقيل: ما بين الحلبتين.

الأفضل كما قال تعالى: (فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[١].

وكم من أناس وفقوا لأعمال كبيرة في أزمنة يسيرة، حتى لتحسب انجازاتهم ضرباً من الخوارق،وما هي بالخوارق، وإنما هي البركة والتوفيق.

وحسبنا أن رسول الله ﷺ أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وغير وجه التاريخ البشري كله إلى اليوم، وإلى ما شاء الله في ثلاث وعشرين سنة. أقام ديناً جديداً، وربى عليه جيلاً فريداً، وأنشأ أمة مثالية، وأسس دولة عالمية، في هذا الزمن اليسير، برغم كل الصعوبات والمعوقات التي اعترضت سبيله من أول يوم.

ولا تقل: إن رسول الله ﷺ، مؤيد بالمعجزات، فمن مثله؟ وأين نحن منه؟

فالواقع أن حياة رسول الله - ﷺ - في دعوته وجهاده، كانت تسير على سنن الله المعتادة، ولم تكن معجزته المتحدي بها هي الخوارق الكونية، بل القرآن الكريم، وإنما تأتي المعجزات في مقام معين بذلت فيه كل الأسباب الممكنة في الأرض، ولم يبق إلا عون السماء، كما في تأييد الله له في الهجرة، حين أنزل سكينته عليه وأيده بجنود غير مرئية، وكذلك في غزوة بدر بعد أخذ كل الأسباب أمده الله بألف من الملائكة مردفين (وما جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرى ولتَطْمَئِنَ به قُلُوبُكُم)[٢].

وانظر إلى الخلفاء الراشدين ومن معهم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان كيف فتحوا الآفاق، ونشروا الإسلام، وعلموا الأمم، ونقلوها من أديانها الجاهلية، و عاداتها ولغاتها في عشرات معدودة من السنين، حتى وقف المؤرخون حيارى أمام هذا الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في العالم دينياً، ونفسياً، وفكرياً، واجتماعياً، وسياسياً في أقل من قرن من الزمان!

---

(١) سورة الزمر: ١٧، ١٨.

(٢) سورة الأنفال: ١٠.

وانظر إلى رجل مثل عمر بن عبدالعزيز صمم أن يعود بالخلافة إلى رشدها، ويرد الحقوق والمظالم إلى أصحابها، ويؤدي الأمانات إلى أهلها، لا تأخذه في الله لومة لائم، فلم تمض سنتان ونصف السنة - هي كل مدة خلافته حتى ملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

ويزداد ثقل العمل في ميزان الحق، وتتضاعف قيمته ومثوبته عند الله، كلما كثرت المعوقات في سبيله، وعظمت الصوارف عنه وقل المعين عليه.

ومن هنا كان فضل الصحابة رضوان الله عليهم على من بعدهم، لأنهم آمنوا والناس كافرون، وصدّقوا وغيرهم يكذبون. وكذلك كان فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من بعدهم من الصحابة، ممن أسلم بعد الفتح، وظهور قوة الإسلام، وفي ذلك يقول القرآن الكريم (لا يستوي مِنكُم مَنْ أنفَقَ من قبلِ الفتحِ وقاتل، أُولئك أعظمُ درجَةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقَاتَلُوا، وكُلاً وعد اللهُ الحُسنىَ)[1].

ولهذا أيضاً كان العمل الصالح أعظم أجراً، وأرفع قدراً عند فساد المجتمعات، واضطراب الأحوال: حين يجور الأمراء، ويترف الأغنياء، ويتجبر الأقوياء، ويداهن العلماء، وتشيع الفاحشة، ويظهر المنكر، ويختفي المعروف، وهو ما يعبر عنه علماؤنا القدامى بـ «ظهور الفتن وفساد الزمان» وما نعبر عنه نحن بـ «الجاهلية الحديثة» فالعاملون بدين الله ولدين الله في تلك الحال كأنما هم صحابة جدد، حيث الدين في إدبار، والجاهلية في إقبال.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «عبادة في الهرج كهجرة إليّ»[2].

قال الحافظ المنذري: الهرج هو الاختلاف والفتن. وقد فسر في بعض الأحاديث بالقتل لأن الفتن والاختلاف من أسبابه، فأقيم المسبب مقام السبب.[3]

(١) سورة الحديد: ١٠.
(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث معقل بن يسار.
(٣) الترغيب والترهيب ج ٥ حديث ٤٥٥٥.

وعن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، قال: قلت: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: (يا أيُّها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكُم لا يَضُرُّكُم من ضلَّ إذا اهْتَدَيْتُم) (١)

قال: سألتَ عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمراً لا يَدَان لك به، فعليك خُوَيْصَّة نفسك. إن من ورائكم أيام الصبرِ، الصبرُ فيهن مثل القبض على الجَمْر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عِمله»

رواه ابن ماجه، واللفظ له ـ والترمذي وقال: حديث حسن غريب، وأبو داود، وزاد: قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم».

وذكر في بعض الروايات في تعليل هذه المضاعفة للأجر بقوله: «إنكم تجدون على الخير أعواناً، ولا يجدون على الخير أعوانا». ومعنى هذا أن الحديث خوطب به بعض الصحابه بعد انتشار الإسلام، ودخول الناس فيه أفواجا، ووجود الأعوان على الخير. وإلا فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يجدوا من يعينهم على الإسلام، بل وجدوا من يحاربهم عليه، ورمتهم العرب عن قوس واحدة فهؤلاء لا يدانيهم أحد في الفضل.

والحديث يوجب الاستمرار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما دامت ثم أذن تسمع، وقلب يعي، وما دام هناك أمل في الاستجابة بصورة من الصور. ولكن حين تُغْلَق الأبواب وتنقطع الأسباب، ويكون الأمر أكبر من طاقة الإنسان واحتماله، كما قال في الحديث:

«ورأيت أمراً لا يدان لك به» أي لا طاقة لديك، ولا قدرة لك عليه فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يملك المؤمن هنا إلا الصبر، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

(١) سورة المائدة: ١٠٥.

والصبر هنا لا يعني السلبية: إنه تربص وانتظار مصحوب بغليان نفسي كغليان القدر فوق النار ،ولهذا جعله الحديث مثل « القبض على الجمر » .

وقد يعني الصبر هنا التفكير في عمل طويل النفس، بعيد الأغوار، يؤدي إلى تغيير الأوضاع الفاسدة من جذورها، يتعاون على ذلك المؤمنون الصادقون، لأن ما لا يقدر عليه الفرد قد تقدر عليه الجماعة، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ويد الله مع الجماعة، ولعل هذا هو المقصود بالعمل الذي يجازى صاحبه عليه بأجر خمسين يعملون مثل عمله . بل أجر خمسين من بعض الصحابة . وهذا يوحي بأن العمل المذكور من نوع عمل الصحابة : من الاستمساك بالحق، والاجتماع على نصرة الإسلام، ومقاومة الجاهلية وبذل النفس والنفيس في سبيل الله، والصبر والمصابرة على ذلك حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

العمر الثاني للإنسان:

وكذلك يستطيع الإنسان الذي رزق التوفيق في إنفاق وقته أن يطيل عمره، ويمد حياته إلى ما شاء الله بعد موته، فيحيا وهو ميت، ويؤدي رسالة للأحياء وهو مقبور .

وإنما يكون ذلك إذا ترك وراءه ما ينتفع الناس به بعده من علم نافع، أو عمل صالح، أو أثر طيب أو سنة حسنة اقتدى بها، أو مؤسسة خيرية ظلت تؤتي ثمارها من بعده، أو ذرية صالحة أحسن تربيتها فكانت امتداداً لحياته وحسن سيرته .

وفي هذا روى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ - « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » .

وفي حديث آخر تضمن تفصيلا لهذه الثلاث: « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره،أو ولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً

ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته» رواه ابن ماجه باسناد حسن والبيهقي.

واخرج مسلم في صحيحه «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: «إنَّا نحنُ نُحيي الموتى ونَكْتُبُ ما قدَّمُوا وآثارهُم»[1] (يُنَبَّأ الإنسان يَوْمئذٍ بما قَدَّم وأخَّر).[2]

والناس متفقون على أن الذكر الحسن الذي يتركه الإنسان بعد موته يعتبر عمراً آخر له: عمراً غير محدود بعد عمره المحدود، يقول المتنبي:

ذِكْرُ الفتى عمره الثاني، وحاجته ما قاته، وفضول العيش أشغال

ويقتبس شوقي هذا المعنى فيصوغه ويقدم له بهذه الصورة الحية، حيث يقول في رثاء مصطفى كامل:

دقات قلب المرءِ قائِلَةٌ له: إن الحياةَ دقائقٌ وثوان!
فارفع لنفسك بعد موتك ذِكْرَها فالذِّكْر للإنسان عمرُ ثان

ولا عجب أن كان من دعاء أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين).[3]

وفرق كبير بين من يموت والقلوب عليه ولهى، والأعين عليه باكية، والألسنة كلها تثني عليه بالخير وتدعو له بالرحمة، ومن يموت ولا تبكي عليه عين، ولا يحزن لفراقه قلب، ولا يترحم عليه لسان، شأن الذين عاشوا في الحياة سلبيين، أو ظالمين متجبرين، كذلك الذي قال فيه الشاعر:

فذاك الذي إن عاش لم ينتفع به وإن مات لم تحزن عليه أقاربه!

وكالذين قال الله فيهم: (كم تَرَكُوا من جنَّات وعيون. وزُرُوع ومقَام

(١) سورة يس: ١٢.
(٢) سورة القيامة: ١٣.
(٣) سورة الشعراء: ٨٤.

كريم . ونَعْمة كانوا فيها فاكِهين . كذلك وأوْرَثناها قوماً آخرين . فما بَكت عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرِين) .[1]

وكثيراً ما يموت هؤلاء، ولا تموت معهم مظالمهم وآثامهم، أو كفرهم وضلالهم، فقد ورثوه تلاميذ وأتباعا لهم، يقتفون آثارهم حذو القُذَّة بالقذة.

وإذا كان من ســن سنة حسنة له أجرهـا وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فإن من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمـل بها إلى يوم القيامة.

وإذا كان من ترك علماً نافعاً، لم ينقطع عمله الصالح، فإن من ترك أثراً سيئاً، وفكراً مضللاً،لم ينقطع أيضاً عمله الطالح.

وما أنكد حظ أولئك الذين واراهم التراب، ولم تزل أعمالهم الآثمة، أو أقوالهم الباطلة، أو أفكارهم الضالة المضلة، المتمثلة في كتب، ومقالات أو أفلام وتمثيليات، أو شرائط ومسجلات ـ تسري وتعمل عملها في إفساد العقول والقلوب، عمل النار في الهشيم.

وهذا ما جعل الصالحين يقولون: طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وويل لمن يموت وذنوبه باقية من بعده!

الحذر من الآفات القاتلة للوقت:

هناك آفات كثيرة تضيع على الإنسان وقته، وتأكل عمره، إذا لم ينتبه لخطرها . . .

من هذه الآفات:

الغفلة:

وهي مرض يصيب عقل الإنسان وقلبه، بحيث يفقد الحس الواعي بالأحداث، واختلاف الليل والنهار، ويفقد الانتباه اليقظ إلى معاني الأشياء،

(١) سورة الدخان: ٢٥ ـ ٢٩.

وعواقب الأمور، فهو يعني بالصور لا بالمعاني، وبالظواهر لا بالحقائق، وبالقشور لا باللباب، وبالبدايات لا بالنهايات.

والقرآن الكريم يحذر من الغفلة أشد التحذير، حتى إنه ليجعل أهلها حطب جهنم، ويجعلهم أضل سبيلاً من الأنعام العجماوات (ولقد ذَرأْنَا لِجَهَنَّم كثيراً من الجِن والإنس لهم قُلُوب لا يفْقَهُون بها ولهم أعيُن لا يُبصِرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولٰئك كالأنعام بل هُم أضل. أولٰئك هُم الغافلون).[1]

ويدين القرآن أولئك الذين يهتمون بظاهر العلم دون حقيقته ولبه، فيقول: (ولكن أكثر الناس لا يعْلمون. يعْلَمون ظَاهِراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هُم غافلون).[2]

ويخاطب الرسول فيقول: (واذكر رَّبك في نفسِك تَضرُّعاً وخِيفَةً ودُون الجَهْرِ من القَوْلِ بالغُدُو والآصال ولا تكُن مِن الغَافِلين)[3].

وفي آية أخرى: (ولا تُطِعْ من أغفلنا قَلْبه عن ذِكْرِنا واتَّبع هواهُ وكان أمرُهُ فُرطاً).[4]

ومن البلية حقاً أن تمر بأمتنا الأحداث تزلزل الجبال، فلا تعتبر ولا تتغير، ولا تحرك سواكنها كأنما هي مسرحية تمثل، أو تمثيلية تؤدى.

ومن هنا كان من دعاء أبي بكر رضي الله عنه:

«اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين».

وكان سهل بن عبدالله يقول: احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: القراء (يعني العلماء) المداهنين، والمتصوفة الجاهلين، والجبابرة الغافلين!

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الروم: ٦، ٧.

(٣) الأعراف: ٢٠٥.

(٤) الكهف: ٢٨.

التسويف:

وثمت آفة أخرى من أشد الآفات خطراً على انتفاع الإنسان بيومه وحاضره، وهي التسويف والتأجيل، حتى تكاد تصبح كلمة «سوف» شعاراً له وطابعاً لسلوكه.

قيل لرجل من عبد القيس: أوصنا. فقال: «احذروا «سوف».

وقال آخر: «سوف» جند من جند إبليس!

فمن حق يومك عليك أن تعمره بالنافع من العلم، والصالح من العمل، ولا تسوف إلى غد حتى يفلت منك حاضرك فيصبح ماضيا لا يعود أبداً. فعليك أن تزرع في يومك لتحصد في غدك، وإلا ندمت حيث لا ينفع الندم:

فمالك يومَ الحشر شيء سوى الذي ... تزودته قبل المهات إلى الحشر
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ... نَدِمتَ على التفريط في زمن البذر

وقال الإمام الحسن البصري: إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغدك، فإن يكن غد لك، فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم.

وكتب محمد بن سمرة السائح إلى يوسف بن أسباط بهذه الرسالة:

(أي أخي، إياك وتأمير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك، فإنه محل الكلال. وموئل التلف، وبه تقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال، فإنك إن فعلت ذلك أدلته من عزمك وهواك عليه فعلاً، واسترجعا من بدنك من السآمة ما قد ولى عنك، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من بدنك بنافعة، وبادر يا أخي فإنك مُبَادرٌ بك، وأسرع فإنك مسروع بك، وجد فإن الأمر جد، وتيقظ من رقدتك، وانتبه من غفلتك، وتذكر ما أسلفت وقصرت، وفرطت وجنيت وعملت، فإنه مثبت محصى، فكأنك بالأمر قد بغتك، فاغبطت بما قدمت، أو ندمت على ما فرطت).

آفات التسويف:

وفي التسويف، وتأخير واجب اليوم إلى الغد آفات:

أولها: أنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد.
دعا أحد الأمراء رجلاً صالحاً إلى الطعام، فاعتذر بأنه صائم فقال الأمير: افطر وصم غداً. قال: وهل تضمن لي أن أعيش إلى الغد؟

وليت شعري من يضمن لأحد أن يعيش إلى غده. والموت يأتي بغتة، وهو يأتي بأسباب شتى؟ وقد قال الشاعر الصالح:

تزوَّد من التقوى فإنك لا تدري إذا جنَّ ليلٌ: هـل تعيش إلى الفجـر
فكم من سليم مات من غير علـة وكم من سقيم عاش حينـاً مـن الدهـر
وكم من فتى يُمسي ويُصبِحُ آمنـاً وقد نُسِجَت أكفانُه وهـو لا يـدري

وموت الفجأة في عصرنا أكثر منه في أي عصر مضى. برغم تقدم الطب والعلم، ولكن الطب لم يمنع الموت بالسكتة والذبحة وغيرها، والعلم لم يمنع الموت بسبب الحوادث التي لا تحصى كل يوم من جـراء أدوات الحضارة: السيارات والطيارات والآلات والأجهزة الميكانيكية والكهربائية وغيرها. بل العلم هو الذي هيأ الموت بهذه الأسباب، حيث كان الإنسان قبل عصر الصناعة في أمان منها..

ثانياً: إنك إن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوقات من مرض طارىء، أو شغل عارض، أو بلاء نازل، ولهذا كان الحزم أن تبادر إلى فعل الخيرات، وأداء الواجبات، وكان العجز أن تسوف وتؤجل حتى تفوتك الفرصة، وتشكو من الغصة.. كما قال الشاعر:

ولا أوأخر شغل اليوم عن كسـل إلى غد إن يوم العاجزيـن غـد

وقال آخر:

عليك بأمر اليوم، لا تنتظر غدا فمن لغد مـن حـادث بكفيـل

وقد وعظ النبي - ﷺ - رجلاً فقال له:

« اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك » .[1]

وقال أحد العلماء لبعض الشباب: اعمل قبل ألا تستطيع أن تعمل، فأنا أبغي أن أعمل اليوم فلا استطيع.

وكانت حفصة بنت سيرين تقول: يا معشر الشباب: اعملوا، فإنما العمل في الشباب.

ثالثاً: أن لكل يوم عمله، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت فارغ من العمل. ولما قيل لعمر بن عبد العزيز وقد بدا عليه الإرهاق من كثرة العمل: أخر هذا إلى الغد. فقال: لقد أعياني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع عليّ عمل يومين؟!

وقال ابن عطاء في الحكم:

حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إنه ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه؟!

رابعاً: أن تأخير الطاعات والتسويف في فعل الخيرات يجعل النفس تعتاد تركها، والعادة إذا رسخت أصبحت طبيعة ثانية يصعب الإقلاع عنها، حتى إن المرء ليقتنع عقلياً بوجوب المبادرة إلى الطاعة وعمل الصالحات، ولكنه لا يجد من إرادته ما يعينه على ذلك، بل يجد تثاقلاً عن العمل، وإعراضاً عنه، وإذا خطا يوماً إليه خطوة كان كأنما يحمل على ظهره جبلاً!

ومثل ذلك نجده عند التسويف في التوبة من المعاصي والمخالفات، فإن النفس تعتاد ارتكاب الذنوب، والتقلب في الشهوات، حتى يعسر فطامها

---

(١) رواه أحمد في الزهد بإسناد حسن عن عمرو بن ميمون مرسلاً. وكذلك رواه عنه النسائي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب، ورواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس موصولاً، وصححه الحاكم «على شرطهما واقره الذهبي، وتبعهما السيوطي فرمز لصحته في الجامع الصغير، واستدرك عليه في «الفيض» بأن فيه جعفر بن برقان ضعفوه. وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير، ولعله لتقوي المرسل بالمسند.

عنها، فإنها في كل يوم تزداد شغفاً بها، وملاصقة لها، ويزداد حجم المعصية، ويتفاقم أثرها في القلب حتى يغشاه سوادها، ويعمه ظلامها، فلا ينفذ إليه شعاع من هدى، أو بصيص من نور.

وفي الحديث[1]: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت، حتى يغلف بها قلبه، فذاك الران الذي ذكر الله في كتابه: (كلاَّ بل ران على قُلُوبِهِم[2])».

خامساً: أن العمل هو مهمة الإنسان الحي، فالمرء الذي لا يعمل لا يستحق الحياة، والعمل مطلوب من الإنسان ما دام فيه عرق ينبض. سواء كان عملاً دينياً أم دنيوياً.

ومن الحكم المأثورة المشهورة عند المسلمين: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

سب الزمان:

ومن الآفات المحذورة، والسلبيات العائقة: إلقاء اللوم على الدهر، ودوام الشكوى من ظلم الزمان وقسوة الأيام، حتى إن بعضهم ليتصور الزمان أو يصوره خصماً يضطهده، أو عدواً يتربص به، أو حاكماً ظالماً يعاقب البريء، ويدلل المسيء، ويتحيز لزيد ضد عمرو، بلا سبب إلا اتباعا للهوى، أو متصرفاً أعمى يضرب ضربات عشواء، تصيب مرة وتخطىء مرات

وهذا كله من آثار النظرة الجبرية التي يحاول الأفراد، والمجتمعات أن يبرئوا فيها أنفسهم، ويتهربوا من تحمل التبعة عن أعمالهم وأخطائهم، وأن يحملوا وزرها لغيرهم، فيلقيها بعضهم على بعض، أو يلقوها على الزمان، أو

(١) رواه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، وابن حيان في صحيحه والحاكم ـ واللفظ له ـ من طريقين، قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم كما في الترغيب.

(٢) سورة المطففين: ١٤.

القدر، أو الحظ، أو الظروف، أو غير ذلك.

وكان الواجب عليهم أن ينظروا فيما نزل بهم من نقمة، وما سلب منهم من نعمة، ويحللوه تحليلاً أعمق من النظر السطحي، يربط المسببات بالأسباب، والنتائج بالمقدمات، وفقاً لسنن الله تعالى في خلقه، فالزمن ليس إلا وعاء للأحداث التي يجريها الله حسب نواميسه وسننه، وهذا معنى الحديث الصحيح: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[1]، أي: هو واضع السنن ومجريها.

ولما انكسر المسلمون في أحد، ومعهم رسول الله - ﷺ - واستشهد منهم سبعون من أبطال الصحابة، وتساءلوا عن سبب ما أصابهم من قرح وبلاء. كان الجواب القرآني: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا، قُلْتُم: أَنَّى هذا؟ قل: هو من عند أنفُسِكُم، إنَّ الله على كلِّ شيء قدير﴾.[2]

والقرآن يقرر هذه القاعدة العامة حين يقول: ﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغَيِّراً نِعمةً أَنْعَمَهَا على قوم حتى يُغَيِّروا ما بِأنفسِهِم﴾.[3]

ومن هنا كان الأولى أن يرجع الناس على أنفسهم باللائمة، محاولين تقويم العوج، وإصلاح الفساد، بدل لوم الدهر، وعيب الزمان، كما قال القائل:

إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا يفسُدان ولكنَ يَفْسُدُ الناسُ

وقال غيره:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان بنا هجانا

ولا يخفى أن بعض الشعراء والأدباء يغلِّفون تمردهم على فساد المجتمع، وجور الحكام، بالشكوى من الزمان، وما يقصدون بالزمان، إلا أهله وأصحاب السلطان فيه، كقول أحدهم:

سألتُ زماني وهو بالجهل مولع ... وبالسوء مزهو، وبالخبث مختص

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٥.
(٣) سورة الإنفال: ٥٣.

فقلت له: هل من سبيل إلى العلا؟ فقال: سبيلاه: الجهالة والنقص

ولهذا يحكون عن بعض جبابرة الملوك أنه قال: الزمان هو السلطان، فمن سب الزمان فقد استوجب العقاب!

إنّ واجب المؤمن إذا نزل به ما يكره، أن يرجعَ إلى نفسه، فيما سبها، وإلى ربه، فيقرع بابه بالتوبة والاستغفار. ويقول ما قال أبواه (آدم وحواء) حين أُخرجا من الجنة: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) [الأعراف: ٢٣].

وما قاله موسى كليم الله، حين رجع إلى قومه من مناجاة ربه، فوجدهم قد ضلُّوا من بعده، واتخذوا عجلاً جسدا له خوار. لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، ولم يسمعوا لنصح أخيه هارون، بل استضعفوه، وكادوا يقتلونه. هنالك توجَّه إلى الله تعالى بالتضرع والدعاء. قال: (رَبِّ اغْفِرِ لي ولأخِي وَأَدْخِلْنَا في رَحْمتِكَ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [الأعراف: ١٥١].

وما قاله الرَّبانيون حين استشهد منهم من استشهد (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا. وما كَان قولهم الَّا أن قالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاسْرافَنَا في أَمْرِنَا وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِيَن. فآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدنيا وحُسْنَ ثَوَاب الآخِرةِ، واللهُ يُحبُّ المُحْسِنين.) [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

فهـــرس